يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ

# الوسيلة

وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ


تأليف

أبو الوفاء محمد درويش

تقديم

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين



**دار القاسم للنشر**

الرياض ١١٤٤٢ ص . ب ٦٣٧٣

ت : ٤٧٧٥٣١١ فاكس : ٤٧٧٤٤٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

# الوسيلــــة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ

ⓒ دار القاسم للنشر ، ١٤١٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

درويش ، أبوالوفاء محمد

الوسيلة.

... ص ؛ .. سم

ردمك ٥-٥٢-٧٥٩-٩٩٦٠.

١ - التوسل ٢ - علم الكلام - دفع مطاعن أ - العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٥/٣٢٩٠.

رقم الإيداع :٣٢٩٠./١٥

ردمك : ٥-٥٢-٧٥٩-٩٩٦٠.

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، أفضل ما ينبغي أن يحمد، لم يلد ولم يولد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو أهل أن يركع له ويسجد، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل من دعا إلى سبيل ربه ووحد، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه ومن تعبد.

أما بعد فقد قرأت هذه الرسالة التي بعنوان (الوسيلة) والتي كتبها الشيخ أبو الوفاء محمد درويش، ولقد أجاد فيها وأفاد، ووقع على المراد، وأوضح حقيقة الوسيلة التي أمر الله بابتغائها إليه في قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) حيث تشبث بها القبوريون، وظنوا دعاءهم للأموات هو التوسل فخاب ظنهم، ووقعوا في دعاء غير الله والتعلق بسواه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأعرضوا عن دعاء مالك الملك، وخالق الكون، ومدبر أمر الخلائق، والمتكفل بالأرزاق، وهو رب العالمين، ومالك يوم الدين، وظنوا أن تعلقهم بمن يسمونهم الأولياء والسادة والشهداء والأقطاب والأبدال والأوتاد ونحوهم يفيدهم في حياتهم، وشابهوا المشركين في قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ولقد أوضح الكاتب رحمه الله في هذه الرسالة ما يلزم أن نتوسل به من توحيد الله تعالى وعبادته ودعائه وحده، والتوكل عليه والصبر على قضائه وقدره، وعدد بعض العبادات التي تتخذ وسيلة إلى الله تعالى ويلتمس بها رضاه، ثم ناقش بعض ما يروج المشركون من الشبه التي يتشبثون بها، وأوضح أنها أوهى وأوهن من بيت العنكبوت، ولقد اهتم علماء أهل السنة بجانب التوحيد العملي القصدي الطلبي الإرادي، وهو توحيد الإلهية والعبادة، وبينوا أدلته، وحذروا مما ينافيه، وذلك عندما رأوا كثرة المخالفين والواقعين في الشرك أو في مقدماته ووسائله، فعلى المسلم أن يحرص على حفظ عقيدته، وما يكمل دينه، ويبتعد عن الشرك وما يقرب منه حتى يسلم له دينه ويقبل به قرباته وعباداته، والله أعلم

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ١٤/٥/١٤١٦هـ

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

## إهداء الكتاب

إلى كل من له قلب يفقه به، وبصر يبصر به، وسمع يسمع به، فيزن الأمور بالقسط، ويعرف الحق، ويستمسك به. أهدي هذا الكتاب.

أبوالوفاء محمد درويش

# المقدمـــة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، والذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. والذي هو أقرب إلى عباده من حبل الوريد. ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا. ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامـة. والـذي أسبـغ على عباده نعمه ظاهرة وباطنة، بغير أن يسألوه. ومن قبل أن يدعوه، وبدون أن يتخذوا إليه الشفعاء، أو يزدلفوا بالوسطاء. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

أحمده حمد عبد يعتقد أن الله وحده مالك الملك، ومدبر الأمر، لا معقب لحكمه، ولا رادّ لفضله، ولا دافع لقضائه، ولا ممسك لرحمته، لا يبدّل القول لديه، ولا يظلم أحداً؛ ولا يملك أحد منه شيئاً.

والصـلاة والسلام على النبي الأمي، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق، بشـيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً. والذي أمره ربه أن يقول للناس كافة: ﴿**لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير،**

**وما مسني السوء. إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾**. [الأعراف: ١٨٨].

وأشهـد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، دعا عباده إلى توحيده، وإخلاص الدين له. وأمرهم أن يدعوه تضرعاً وخفية؛ وأنبأهم أن له دعوة الحق. وأن الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء، إلا كباسط كفيه إلى الماء، ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، بلّغ ما أُنزل إليه من ربه. ودعا الناس إلى توحيد ربهم. وأمرهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً. ووصاهم بما وصّىٰ به الأنبياء من قبله أممهم. أن يقيموا الدين. ولا يتفرقوا فيه.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ما توسل إليه متوسل بطاعته. وما تقرب إليه متقرب بإخلاص الدين له، وما ازدلف إليه مؤمن بتجريد توحيده. وما توجه إليه متوجه بالإيمان به، وما سأله سائل برحمته؛ صلاة وسلاماً اتخذهما وسيلة إلى مرضاة الله. وأرجو ثوابهما عند الحي القيوم الذي تعنو لهيبته الجباه.

**أما بعـــد:**

فقـد أمـر الله ـ تعـالى شأنـه ـ المؤمنين أن يتقوه، ويبتغوا إليه الـوسيلة، ويجاهدوا في سبيله، لعلهم يفلحون. قال ـ تعالى ـ في سورة المـائدة: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾**.

ولكن كثيراً من الناس أساءوا فهم الوسيلة. فركبوا العشواء،

وخبطوا الظلماء، وضلوا ضلالاً بعيداً، وحسبوا أن الوسيلة التي تبتغى إلى الله هي عباد أمثالهم. منهم من درج، وأفضى إلى ما قدم، ومنهم من لم يزل حيًّا تسعى به القدم، فسألوا الله ـ تعالى ـ بذواتهم، وتوجهوا إليه بأشخاصهم، وأقسموا عليه بحقهم. فضلّ سعيهم، وحبط عملهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ولو أن الأمر وقف عند العامة وأشباه العامة لم يعدهُم إلى غيرهم لهان الخطب، وخفت البلوى؛ واحتمل المصاب. ولكن فريقًا من الـذين يعتزُون إلى العلم كذباً أو صدقاً، ويعتزّون بزيهم أو بشهاداتهم، يأخذون أخذ العامة، ويهتفون هتافهم، ويسلكون سبيلهم، ويقولون قولهم، ويفعلون فعلهم. فيستشري الشر، ويتفاقم الفساد، وهم يزعمون أن الدين حكرة لهم، ووقف عليهم؛ وأنه لا يسوغ لأحد أن يتكلم في الدين غيرهم؛ ولا ينبغي لأحد من دونهم أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، فإن أمر آمر، أو نهى ناهٍ من غيرهم ثاروا به، وتألبوا عليه، وأغروا به العامة، ليبسطوا إليه أيديهم وألسنتهم بالسوء، وأخذوا يثرّون ويهضبون في هذا البذاء الذي يثير سخط العامة على من يحاول إنقاذهم من ورطاتهم، وهدايتهم من ضلالهم، وقالوا: إنه يكره النبي ﷺ، أو يحرم الصلاة عليه، أو ينكر كرامات الأولياء، أو ما ماثل ذلك من هذا السخف الذي هم يعلمون قبل غيرهم، أنه براء منه؛ ولكنهم يفترون الكذب؛ ويخلقون الإفك، ليخملوا الداعي إلى الحق، ويرفعوا أنفسهم على عاتقه، لأن الأقدار لم تتح لهم أن يكونوا أسبق

منه إلى إذاعة هذه الدعوة، أو أقدر منه على الجهر بها.

أن مما يؤلم النفس، ويحزّ في القلب أن نرى هذه المآسي تمثل على مسرح العالم الإسلامي. وأن نرى أهل هذا الدين الحنيف القيم متفرقين هذا التفرق المحزن الذي ذهب بريح المسلمين، ورماهم بالفشل في كل شأن من شئونهم، وحال من أحوالهم. وهذا كتاب ربهم ينطق عليهم بالحق، ويدعوهم إلى الاعتصام به، ويحضّهم على جمع الكلمة، ويحثهم على الألفة، ولمّ الشمل، وضم النشر. ولو أنهم استجابـوا لله ورسـوله لكانوا أقوى الأمم جميعاً، ولعاد لهم سلطانهم الذي فقدوا. وثبت عرشهم الذي ثله التفرق، وارتأب صدعهم الذي أثأته يد الغفلات.

القـرآن منـار يهتـدي به الضال، ويعشو إلى ضوئه الخابط في الظلمات، فلو ولى المسلمون وجوههم شطر القرآن، وآثروا الاهتداء بهداه والسـير على ضيائـه، ما ضلوا ولا تفـرقوا، ولا ضعفوا ولا استكانوا؛ ولكن الشيطان استزلهم ببعض ما كسبوا. وحبب إليهم التفرق والخلاف فأوردهم موارد المهلكات، وجلب عليهم الخيبة والخذلان، وهم عن كيده غافلون.

ضلّ كثير من الناس فهم الوسيلة إلى الله، وأغراهم الشيطان بأمور منكرة حببها إليهم. وزيّنها في قلوبهم فحسبوها وسائل تقربهم إلى الله. والحق أنها أوهـام وضـلالات تبعد عن الله. وتستوجب غضبه ومقته؛ لأنها غير ما أمر به، ودعا إليه، ورغب فيه.

وكنت كلما دعـوت الناس إلى الحق من أمرهم، ورمت أنوف

المستكبرين منهم. وأخذتهم العزة بالإثم. ورفعوا عقائرهم محتجين بهذه الآية الكـريمـة: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**﴾ زاعمين أن الوسيلة ما هم من البهتان والضلال المبين.

دفعني ذلـك إلى أن أشرح للعـامـة هذه الآية الكريمة شرحاً يكشف عن وجـه الحق فيها، ويوضح الصواب في أمرها، ويجلي حقيقة الوسيلة التي أمر الله الناس أن يبتغوها إليه، وقفا عند حد ما جاء عن ثقات المفسرين، وأساطين اللغويين، حتى يتبين الرشد من الغي؛ فيهلك من هلك عن بينة، ويحيىٰ من حي عن بينة. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

قال الله ـ تعالى ـ وهو أصدق القائلين: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**﴾.

تضمنت هذه الآية الكريمة خمسة أمور:

**الأول**: نداء المؤمنين لتنبيههم إلى ما يراد منهم.

**الثاني**: أمرهم بالتقوى.

**الثالث**: أمرهم بابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى.

**الرابع**: أمرهم بالجهاد في سبيل الله.

**الخامس**: فلاح من يستجيب لله ـ تعالى ـ ويطيع أمره.

وأستعين بالله ـ تعالى ـ في توضيح هذه الأمور على ضوء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص اللغوية، وأقوال الكبار من أئمة المفسرين. فأقول، وبالله التوفيق والتسديد إلى أمثل طريق.

# ١ـ نداء المؤمنين

ينادي الله ـ سبحانه ـ المؤمنين ليوقظهم من سباتهم، وينبههم من غفلتهم، ويوجههم إلى ما يراد منهم ليأخذوه بقوة، ويمضوا فيه جادين.

والمؤمنون هم الذين بينهم الله ـ جل ذكره ـ في قوله الكريم: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾. [المؤمنون: ١ ـ ٧].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا

**كانـوا معـه على أمـر جامـع لم يذهبـوا حتى يستـأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾** .

وقد حدّ رسول الله ﷺ الإيمان، كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه رجـل فقـال: ما الإيمان؟ قال: «**الإيـمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث**». [متفق عليه]

والإيمان في اللغة: التصديق والثقة وقبول الشريعة.

فمن آمن بالله صدق بوجوده، ومن آمن بالنبي صدق رسالته، ووثق به، وقبل الشريعة التي جاء بها. ومن آمن بالكتاب صدق أنه منزل من عند الله، وقبل العمل بما فيه. ومن آمن بالملائكة صدق بوجودهم، ووثق بسفارتهم بين الله ورسله. ومن آمن باليوم الآخر صدق بوقوعه، ووثق بمجيئه واستعد له.

ومن هنا ترى أن الإيمان لا يتم ولا يكمل إلا بالعمل الصالح، الذي تفرضه الشريعة.

وقد يقع العمل الصالح طاعة لله ورسوله وانقياداً ظاهراً من قبل أن يتمكن الإيمان في القلب فلا يكون إيماناً، وإنما يكون إسلاماً قال ـ تعالى ـ: **﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخـل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم﴾**.

وقـد يقـع العمـل الصـالح مع إعراض القلب عن الإيمان، وإصراره على الكفر فيكون نفاقاً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا**﴾ . وقال تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾ .

فالإيمان الحق ما وقر في النفس، واطمأن به القلب، وبدت آثاره على الجوارح. روى البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة. والحياء شعبة من الإيمان**» وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدي بن عدي: أن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها؛ وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص (رواه البخاري).

ليس المراد من الإيمان هذه الدعوى التي ينطق بها اللسان في يسر وسهولة بغير أن تتبوأ مكانها في القلب. إنما الإيمان الاعتقاد الجازم؛ واليقين الحق، الذي يدفع صاحبه دفعاً قويًّا، لا هوادة فيه إلى العمل الصالح، والاستمساك بالفضيلة.

الإيمان هو تلك العقيدة التي يحقق المؤمن مقتضاها، ويسير في الحياة بما توحي إليه، هو تلك العقيدة التي تدفع إلى التضحية بالمال في سبيل الله، وبالنفس دفاعاً عن الحق، إن كان الحق في حاجة إلى التضحية بالنفوس. هو العقيدة التي ألهمت إخواننا الذين سبقونا بالإيمان أن يبيعوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله والحق والمبدأ السامي والغرض النبيل الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ.

ذلك هو الإيمان الحق الذي يملأ القلب، وتطمئن به النفس، ويفيض على الجوارح؛ فيجعلها تنبعث في طاعة الله ـ تعالى ـ، ولا تدخر وسعاً في العمل بما يرضيه، وفي الخضوع لأحكامه والاستجابة لدعوته.

ذلك الإيمان هو الذي أشار إليه الله ـ تعالى ـ في الآيات السابقات وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**﴾.

إن العمل الصالح ثمرة الإيمان الحق.

والإيمان الذي لا يبعث على العمل؛ ولا يهيب بالنفس إليه، ليس بإيمان حق. ولا يكاد الإيمان يذكر في القرآن إلا قرن به العمل الصالح، ليعلم الناس أن الإيمان بغير عمل دعوي بغير بينة، وجسم بغير روح، وشجرة بغير ثمر، وسحاب بغير مطر.

يقول ﷺ: «**ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قوماً ألهتهم أمانيّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم. وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**»(١).

---

(١) هذا ليس حديثاً نبوياً وانما هو من قول الحسن البصري رحمه الله

الإيمان بالله هو الاعتقاد الجازم الذي لا يطير بجنباته الشك، ولا تسمو إليه الريبة؛ واليقين بأن الله موجود وموصوف بصفات الكمال جميعاً. ذلك الاعتقاد الذي يحدو بصاحبه إلى أن يراقب الله الذي يؤمن بوجوده في كل أقواله وأفعاله وخواطره وأفكاره؛ فلا ينطبق بالسوء. لأنه موقن أن الله يسمع مايقول ولا يبسط يده بالشر، لأنه يعلم أن الله عليه رقيب، ولا يقصر في أداء فرض، افترضه الله عليه؛ لأنه على يقين بأن الله ـ تعالى ـ يحصي عليه هذا التقصير، ويسأله عنه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ولا يدع الشر يخطر بباله، فإن خطر نحاه سريعاً، لأنه واثق بأن الله عليم بذات الصدور.

# الإيمان قابل للمزيد

الإيمان يزيد بتدبر آيات الكتاب المبارك، وبالنظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، وبالرجوع إلى النفس والتفكر في قواها، وإلى الجسم وتأمل أجزائه وأعضائه، للوقوف على حكمة الله في خلقها. وكلما أنعم العبد النظر في هذا كله ازداد معرفة بربه، فدفعته المعرفة إلى الطاعة وصالح العمل.

والقرآن الكريم يشهد بأن الإيمان يزداد حتى يسمو بصاحبه إلى الدرجات العلى، وينزله منازل الشهداء والصديقين. قال - تعالى -: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾. وقال - تعالى -: ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم**﴾ وقال تعالى: ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾. وقال - تعالى -: ﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**﴾. وقال - تعالى -: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾. وقال - تعالى -: ﴿**ويزداد الذين آمنوا إيماناً**﴾. وقال - تعالى -: ﴿**وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً**﴾.

فمن شاء أن يزداد إيماناً مع إيمانه؛ فليكثر من العمل الصالح،

ومن النظر والتفكر فيما بث الله في الآفاق من آثار قدرته وحكمته، ودلائل عظمته، وآيات رحمته.

وقد رأيت فيما أوردت عليك من الآيات البينات أن المؤمنين كانوا يزدادون بنزول القرآن إيماناً. وأنت تستطيع أن تزداد إيماناً بتلاوة القرآن وتدبره. إذ كلما تدبرته تفتحت لبصيرتك آفاق جديدة من المعرفة والهداية والإيمان.

# العمل إيمان

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

يريد ـ تعالى ـ صلاة المسلمين إلى بيت المقدس، قبل أن تحول القبلة، وقبل أن يولي الله جل اسمه، نبيه الكريم القبلة التي يرضاها.

سأل المسلمون رسول الله ﷺ عن المسلمين الذين ماتوا من قبل أن يوليهم الله شطر المسجد الحرام، فكان في هذه الآية الكريمة جواب سؤالهم، وشفاء غليلهم، وتبشيرهم بأن الله لا يضيع عملهم الصالح، الذي دفعهم إليه إيمانهم الصادق. إن الله بالناس لرءوف رحيم.

فقد اعتبر الله ـ سبحانه ـ الصلاة إيماناً، لأنها علَم الإيمان، وشعار المؤمنين. بل هي جزء من الايمان الذي قول و عمل.

فلا ينبغي للمؤمن أن يفرط في جنب العمل الصالح، وفي الاستجابة لدعوة الله ـ تعالى ـ لئلا ينقص إيمانه بنقص العمل.

ما شك إبليس عليه اللعنة في وجود الله ـ تعالى ـ، ولقد أقسم بعزته، وسأله النظرة قال ـ تعالى ـ: ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾. وقال تعالى: ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾. [الحجر: ٣٦].

وفي هذا اعتراف بوجود الله تعالى، وإقرار بعظمته وقدرته، ولكنه مع هذا الاعتراف والإقرار قصر في العمل، وفرّط في جنب الطاعة، وأبى أن يستجيب لله ـ تعالى ـ حين دعاه إلى السجود لآدم، وحملته الكبرياء على المعصية، فكان من أصحاب الجحيم.

فليحذر المؤمن الكبرياء التي تسوق إلى معصية الله، والمعصية تفضي إلى الندامة، وتقصي عن دار المقامة.

# ٢ ـ الأمر بالتقوى

قال الفيروزابادي في القاموس المحيط: وقاه وقياً ووقاية وواقية. صانه: كوقاه.

والوقاء ويكسر والوقاية مثلثة ما وقيت به. والتوقية الكلاءة والحفظ. واتقيت الشيء وتقيته اتّقِيه وأتْقيه تُقى وتقية وتقاة حذرته. والاسم التقوى. . وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿**هو أهل التقوى**﴾ أي أهل أن يتقي عقابه. ا. هـ.

وقال الراغب: الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء. قال تعالى: ﴿**فوقاهم الله**﴾، ﴿**ووقاهم عذاب السعير**﴾، ﴿**ما لهم من الله من ولي ولا واق**﴾، ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾ والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه.

ثم يسمي الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً؛ حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه. والمقتضي بمقتضاه. وصارت التقوى في متعارف الشرع حفظ الشيء عما يؤثّم، وذلك بترك المحظور.

وقال ابن الأثير:

وقيت الشيء أقيه إذا صنته، وسترته عن الأذى.

من هذه النصوص تعلم أن المراد بالتقوى الخوف من عقاب الله

ـ تعالى ـ وصيانة النفس من الآثام التي تعرّض له.

والتقوى علم الإيمان وآيته. والقرآن الكريم حافل بالآيات التي يأمر الله ـ تعالى ـ فيها عباده بالتقوى.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾. وقال تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾. وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم**﴾.

فالله ـ تعالى ـ يأمر المؤمنين بالتقوى، ليقفوا عند حدوده، ولا يتعدوها، وليتركوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وليكفوا أيديهم وألسنتهم عن الشر والأذى والعدوان، فإذا همّ أحدهم بشيء من ذلك، ودعته نفسه إليه ذكر الله ـ تعالى ـ فأيقظ التقوى في نفسه، فحالت بينه وبين ما يشتهي من هذه الشرور والآثام.

التقوى أس السعادة في الدنيا والآخرة.

لو اتقى الناس ربهم ما بغى أحد على أحد، ولا اعتدى قوي على ضعيف، ولا اغتال أحد حق أخيه.

لو اتقى الناس ربهم ما أزهقت الأرواح البريئة، ولا سلبت الأموال، ولا هتكت الأعراض، ولا انتهكت الحرمات، ولعاش

الناس في سلام ووئام؛ معتصمين بحبل الله.

لو اتقى الناس ربهم ما كانِ بينهم الوصي الخائن، الذي يأكل أموال اليتامى ظلماً؛ ولا شاهد الزور الذي يُضل القضاة، ويلوي بحقوق الناس، ويهدر دماءهم. ولا القاضي المرتشي الذي يبريء المجرم، ويعاقب البريء. ولا الأمير الذي يوسع رقعة أملاكه بما يغتصبه من الفقراء والمستضعفين، ولا الوزير الذي يقصي العامل من عمله الذي يستمطر منه قطرات رزقه، ليعهد به إلى قريب أو أثير من أولي الزلفى لديه. ولا الطبيب الذي يعهد إليه المريض أن يضمد جرحه؛ فيعمل على أن يظل الجرح فاغراً فاه. ما تسنى له ذلك ليعظم الأجر الذي يتقاضاه.

لو اتقى الناس ربهم ما كان بينهم السكير الذي ينفق ماله في احتساء كئوس الصهباء، ويذر أولاده وزوجه يتضورون جوعاً، ولا المقـامـر الذي ينفق لياليه أمام المائدة الخضراء طمعاً في ربح غير مشروع، فلا يبوء إلا بالخيبة والخسران المبين. ولا الشاب المخادع الذي يغري الفتاة، ويعـدها بالزواج حتى تجود له بأثمن ما تملك، حتى إذا قضى وطره، وأشبع نهمته، وأرضى شهوته، نفض يده منها، وتركها للهم يعتلج في صدرها، والعار يرتسم على جبينها، والجنين النغل يضطرب في أحشائها. حتى تفر بعارها إلى إحدى السوءيين: إما الانتحار، وإما مغادرة بيت الشرف والكرامة إلى بؤرة من بؤر الفساد، تتجر فيه بعرضها لتكون من الخاسرين.

لو اتقى الناس ربهم ما كان بينهم الشيخ الذي يرسل لحيته،

ويطيل سبحته، ليخدع الناس عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم باسم الدين، والدين منه ومن سوء فعله بَراء. ولا الدجال الذي يدعي علم الغيب ـ والغيب لله وحده ـ أو يزعم القدرة على شفاء المرضى وقضاء الحاجات بالهمهمة والتمتمة، والعُوَذ والتمائم ليأكل أموال الناس بالباطل، ويفسد في الأرض بغير الحق.

فالتقوى سياج منيع، وحصن حصين يقي الناس الوقوع فيما حرم الله؛ ويصدهم عن الفساد في الأرض.

وهي الرقيب حين لا رقيب، والحارس حيث لا حارس. والشرطي إذا غاب الشرطي، والمحتسب إذا عز المحتسب.

وهي من أسباب الخير والرزق والبركة والسلامة، قال ـ تعالى ـ: **﴿لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**.

وليت شعري ماذا يبتغي الناس وراء فتح البركات من السماء والأرض؟ ومن أجل ذلك أكثر الله ـ تعالى ـ في القرآن الكريم من الدعوة إليها والحض عليها، وبيان ثمراتها، وإظهار بركاتها، حتى لقد جعلها أحد ركني الولاية، التي تجلب لصاحبها البشرى في الدنيا والآخرة، وتدرأ عنه الخوف والحزن قال ـ تعالى ـ: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**.

فلو استجاب الناس لربهم، واتّقوه لسعدوا في الدنيا والآخرة، وكانوا من الفائزين المفلحين.

# ٣ ـ الأمر بابتغاء الوسيلة إلى الله

ابتغاء الوسيلة طلبها. قال الفيروزابادي: بغيته أبغيه بُغاء وبُغى وبغية بضمهن وبغية بالكسر طلبته كابتغيته:

وقال الراغب: يقال: بغيت الشيء، إذا طلبت أكثر مما يجب وابتغيت كذلك. قال ـ عز وجل ـ: لقد ابتغوا الفتنة من قبل. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**يبغونكم الفتنة**﴾ والبغي على ضربين: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان. والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشبه.

وأما الابتغاء فقد خص بالاجتهاد في الطلب؛ فمتى كان الطلب لشيء محمود، فالابتغاء فيه محمود.

من هذه النصوص تعلم أن ابتغاء الوسيلة هو الجد في طلبهم، والجد في دركها.

وأما الوسيلة فإليك أقوال أئمة اللغة وأئمة التفسير في بيانها: قال الفيروزابادي: الوسيلة والواسلة المنزلة عند الملك، والدرجة والقربة، ووسل إلى الله توسيلاً، عمل عملاً، تقرب به إليه كتوسل.

وقال الراغب: الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة. وهي أخص من الوصيلة، لتضمنها لمعنى الرغبة. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وابتغوا إليه**

**الوسيلة﴾** فحقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة. وهي كالقربة.

وقال ابن الأثير: الوسيلة هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء، ويتقرب به. وجمعها وسائل، يقال وسل إليه وسيلة، وتوسل. والمراد بها في الحديث: «**آت محمداً الوسيلة**» القرب من الله. وقيل: هي الشفاعة. وقيل: هي منزلة من منازل الجنة.

**وقال ابن جرير الطبري: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾** يعني جل ثناؤه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب، وأوعد من العقاب (اتقوا الله) يقول: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم، من الطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم، وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم (وابتغوا إليه الوسيلة) يقول: واطلبوا القربة إليه بما يرضيه. والوسيلة هي الفعيلة من قول القائل: توسلت إلى فلان، بمعنى تقربت إليه. ومنه قول عنترة:

**إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي**

يعني بالوسيلة القربة.

ومنه قول الآخر:

**إذا غفل الواشون عدنا لوصلها ... وعاد التصافي بيننا والوسائل**

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ثم روى بعد ذلك عن عطاء أنها القربة، وعن مجاهد: ابتغوا إليه الوسيلة أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه. ا. هـ.

وقال الزمخشري :

الوسيلة كل ما يتوسل به ، أي يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله ـ تعالى ـ من فعل الطاعات ، وترك المعاصي ، وأنشد للبيد :

**أرى الناس لايدرون ماقدر أمرهم ألا كل ذي لب إلى الله واسل**

**وقال البيضاوي** في تفسير الآية المذكورة .

«الوسيلة ما تتوسلون به إلى ثوابه . والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي ؛ من وصل إلى كذا إذا تقرب إليه . وفي الحديث : «**الوسيلة منزلة في الجنة**» . ا . هـ . [رواه مسلم رقم (٣٨٤)] .

**وقال النسفي :**

«الوسيلة هي كل ما يتوسل به ، أي يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله ـ تعالى ـ من فعل الطاعات وترك السيئات» .

**وقال أبوالسعود :**

«هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ، ويتقرب إلى الله من فعل الطاعات وترك المعاصي ، من وسل إلى كذا ، تقرب إليه بشيء . ا . هـ .

**وجاء في تفسير الجلالين :**

«والوسيلة ما يقربكم إليه من طاعته» .

**قال الألوسي :**

«الوسيلة هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ، ويتقرب إلى الله ـ عز

وجـل ـ من فعل الطاعات وترك المعاصي. من وسل إلى كذا أي تقرب بشيء. ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به، كما يشير إليه كلام قتادة، فإنه ملاك الأمر كله، والذريعة إلى كل خير. وقيل: الجملة الأولى: ﴿اتقـوا الله﴾ أمـر بترك المعاصي. والثانية ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ أمر بفعل الطاعات، وأخرج ابن الأنباري وغيره عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الوسيلة الحاجة، وأنشد قول عنترة:

**إن الرجـال لهم إليـك وسيلـة ... إن يأخـذوك تكحلـي وتخضبي**

وكـأن المعنى: اطلبوا إليه حاجاتكم متوجهين إليه، فإن بيده ـ عز شأنه ـ مقاليد السموات والأرض، ولا تطلبوها متوجهين غيره فتكونوا كضعيف عاذ بقرملة[١]. ا. هـ.

وإنـما سقت إليك كل هذه النصـوص الصريحة الواضحة من أقوال أئمة اللغويين، وأساطين المفسرين الذين يرجع إليهم الأمر في فهم المعاني القرآنية، عسى أن تقتنع بأن الوسيلة هي كما قالوا: كل ما يتقـرب به إلى الله ـ تعـالى ـ من فعـل الـطاعـات، وترك المعاصي. وأن التوسل هو ابتغاء الوسيلة إلى الله أي الاجتهاد في فعل ما يتقرب به إليه سبحانه.

تلك هي الوسيلة الحق التي يدعو الله الناس إلى أن يبتغوها إليه. فالإقرار بوحدانيته ـ تعالى ـ وسيلة. والشهادة للنبي ﷺ بالرسالة وسيلة. وإقام الصلاة وسيلة. وإيتاء الزكاة وسيلة. وصوم رمضان

---

(١) القرملة شجرة ضعيفة بلا شوك تنفضخ إذا وطئت.

وسيلة. وحج البيت وسيلة. وأداء الفرائض وسيلة. واجتناب المحرمات وسيلة. وطلب العلم النافع وسيلة. وتلاوة القرآن مع التدبر وسيلة. والصلاة على النبي ﷺ وسيلة. وذكر الله ـ تعالى ـ وسيلة. والصدقة وسيلة. والإصلاح بين الناس وسيلة. والكلمة الطيبة، تدخل بها السرور على المؤمن وسيلة. والاشتراك في أعمال البر وسيلة. والحض على طعام المسكين وسيلة. والعطف على اليتيم وسيلة. وإماطة الأذى عن الطريق وسيلة. وجميع شعب الإيمان وسائل، تقرب إلى الله، وتدني من رحمته.

ولنتناول بعض هذه الأمور بشيء من التوضيح والبيان فنقول:

# الإقرار بالخالق سبحانه وبوحدانيته

أول ما يقرّبك إلى الله ـ تعالى ـ ويجعلك مهبطاً لرحمته؛ وأهلاً لمغفرته، ومستحقاً لرضوانه أن تؤمن بالخالق إيماناً صادقاً لا يسمو إليه الشك، ولا تطير بجنباته الريب، وأن توقن بأنه واحد لا شريك له، وأن تسلم وجهك إليه، وتدعوه تضرعاً وخُفية، معتصماً به؛ مخلصاً له الدين حنيفاً؛ معتقداً أنه وحده وليك ونصيرك، وأن غيره لا يملك لك ضرًّا ولا نفعاً، وأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. موقناً أنه وحده الخالق الرازق الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض. وأنه العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه العزيز الحكيم، الذي لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب، والذي يقسم الأرزاق بين عباده على مقتضى حكمته، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، لا معقب لحكمه، إليه يرجع الأمر كله، وإليه المصير.

فإذا أنت آمنت بهذا كله؛ واستيقنته نفسك كان إيمانك ويقينك خير ما يقربك إليه، ويزلفك عنده، وكيف لا يقبل الله على من أقبل

عليه؟ وكيف لا يرضى عمن رضي بقضائه وقدره؟ وكيف لا يعين من استعانه؟ وكيف لا يغيث من استغاثه؟ وكيف لا يجير من استجاره؟ وكيف لا يرحم من استرحمه، ولا يغفر لمن استغفره؟ ولا يرزق من استرزقه، وهو يقول وقوله الحق: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ .؟

ويقول: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ . ويقول: ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ . ويقول: ﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾ . ويقول: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ . ويقول: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره**﴾ . ويقول: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ .

ويقول في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه كما جاء في صحيح البخاري: «**إذا تقرب إليَّ العبد شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً**» [متفق عليه].

ويقول في الحديث القدسي أيضاً: «**من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**» . [رواه مسلم]

الإيمان بالله وحده أول القرب الذي يزدلف بها العبد إلى ربه، وعليه تقوم صحة سائر العبادات، وبدونه لا تصح عبادة، ولا تقبل قربة.

قال ـ تعالى ـ في شأن الكافرين: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً**﴾ .

وقـال ـ تعـالى ـ: ﴿مثـل الـذين كفـروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾.

وقـال تعـالى: ﴿والـذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾.

وقـال تعـالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾.

وقـال تعـالى: ﴿ومن يرتـدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾.

فهـذه الآيات الكريمة تقنعك بأن الأعمال الصالحة بغير إيمان باطلة، لا يعبأ الله بها، ولا يقيم لها وزناً.

فالإيمان بالله وحـده رأس الـوسـائـل وجماعها، وكل وسيلة لم يعضـدها الإيمان، ولم يشد أزرها اليقين باطلة ذاهبة ضياعاً، لا يحظىٰ منها صاحبها بطائل، ولا يظفر بنائل. ولا تغنى عن المتوسل بها شيئاً.

قل للذين آمنوا: لا يستخفنكم الشيطان، فيضلكم عن حقيقة الإيمان، فتكونوا من الخاسرين.

لا وسيلة أعـظم من الإيمان، ولا قربـة أقـرب من الإسلام، وحسبك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

تتنزل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون نزلاً من غفورٍ رحيم﴾، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ فهذه الآيات البينات برهان ساطع، وحجة قاطعة ودليل صادق على أن الإيمان وسيلة إلى كل ما فيها من المطالب والرغائب وبالله التوفيق.

# التوحـــيد

لا يغني عنك أن تؤمن بوجود الله[١] حتى تعتقد اعتقاداً يهيمن على كل وجودك أنه لا إله غيره.

فالكفار والمشركون كانوا يقرون بوجوده، ويعتقدون أنه الخالق الرازق مدبر الأمر، ومنزل القطر، وكفى بالقرآن على ذلك شهيداً.

قال ـ تعالى ـ في سورة يونس: ﴿**قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال فأنَّا تصرفون**﴾.

وقال ـ تعالى ـ في سورة العنكبوت: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون**﴾.

وقال ـ تعالى ـ في سورة العنكبوت أيضاً: ﴿**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون**﴾.

---

(١) بالخالق سبحانه.

فهـا أنت ذا ترى أن الكفـار والمشركـين كانـوا يقرون بوجوده ـ تعـالى ـ ويعـزون إلى قدرته هذه الأعمال الباهرة، التي يعترفون صاغرين بأن آلهتهم لا تقوى على شيء منها.

فما نشأ كفرهم من إنكار وجود الله، ولكن من أنهم كانوا يدعون غيره، مع اعترافهم بوجوده، وإقرارهم بعظيم قدرته.

جاءت دعـوة الإسـلام لتصرف الناس عن كل معبود باطل، وتجمع قلوبهم على إله واحد لا شريك له: يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويدبر الأمر، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

فمن أعظم الوسائل وأجداها نفعاً أن تدعو ربك تضرعاً وخفية، وأن تفزع إليه في حاجتك، وأن ترغب إليه في كشف الملمات عنك، وألَّا ترى في الوجود قوة تملك لك منه نفعاً ولا ضرًّا.

فأقبل على ربك، بحواسك كلها، ومشاعرك كلها، وضميرك كله، وقلبـك كله، ووجـدانـك كله، يحببـك، ويرض عنـك، ويستجب لك.

واحذر أن يخدعك الجاهلون بوسائلهم الباطلة، فإنها لن تُغني عنك من الله شيئاً، بل تُبعدك عن ربك، وتحول دون استجابته لك. وربك على كل شيء وكيل.

# الإقرار برسالة محمد - ﷺ -

الإقـرار بالشهادتين أقوى أركان الإسلام وأمتن دعائمه، وهو الباب الذي يدخل منه الإنسان ساحة الإسلام الفسيحة.

والشهـادتـان متلازمتان، لا تنفك إحداهما عن الأخرى، فلا يغني عنك أن تقـول: أشهـد أن لا إلـه إلا الله، حتـى تقـول: وأشهـد أن محمـداً رسـول الله.

فالشهادة لله ـ تعالى ـ بالوحدانية لا تدخل الإنسان الإسلام، حتى تقترن بها الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة.

والشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة ينطوي فيها الإيمان كله. فإقرارك برسـالة محمد ﷺ إقرار بوجود الله[1] ـ تعالى ـ الذي أرسله، والمَلَك الذي بلغه رسالة ربه، وإقرار بأن الكتاب الذي جاء به وحي من الله تعالى، وإقرار بصحة ما جاء به الكتاب الكريم من الملائكة والكتب والنبيين واليوم الآخر.

فإذا أنت آمنت برسالة محمد ﷺ وصدق إيمانك بها أحببته ووقرته واتبعته وأطعت أمره، وتركت كل قول يخالف قوله، وآثرت شرعه على رأيك وهواك، وجعلت هواك تبعاً لما جاء به[2]. وجعلته أسوتك

---

(١) بالخالق سبحانه.

(٢) وسرت تبعاً لما جاء به؛ لأن العبارة مأخوذة من «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» وهو حنيف.

الحسنة، وإمامك الذي تقتدي به في شأنك كله.

ولا جرم أن ذلك من خير الوسائل، ومن أفضل ما يقربك إلى الله ويرضيه عنك. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول في سورة آل عمران: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾. [آل عمران: ٣٠].

ويقول في سورة النساء: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا**﴾. [النساء: ٨٠].

فقد جعل الله حبه لعباده جزاء لاتباعهم رسوله، وجعل طاعة الرسول طاعة له تعالى. وطاعة الله عنوان محبته، ولله يحب الذين يحبونه، ويقرب الذين يتقربون إليه بطاعته. فطوبى لمن كانت وسيلته إلى الله إيمانه برسوله، واتباع شريعته، والاقتداء به.

طوبى للذين يتقربون إلى الله بحب رسوله ﷺ ذلك الحب الذي يدفعهم إلى التمسك بسنته والاقتداء بهداه، والذود عن دينه. دونك هذه الوسيلة فاستمسك بها، وتعلق بأهدابها. ولا يستخفنك الجاهلون، فتنصرف عنها إلى الباطل الذي يزعمون وعليه يعكفون.

# الصلاة

أعظم بها قربة، وأكرم زلفىٰ!

هي عماد الدين، وركنه الركين، وحصنه الحصين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن أقام الدين فهو من المقربين.

ألم يقل رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»؟

فما ظنك بقول رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوىٰ؟ ألا تراه حقًّا وصدقاً؟

بلى، قوله الحق، الذي لا يسمو إليه الشك، ولا تطير بجنباته الريب والظنون.

يقول لك نبيك الذي تؤمن به وتعزّره وتوقره وتتبع النور الذي أُنزل معه، وتحبه أكثر من نفسك التي بين جنبيك «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» ومعنى هذا أن العبد لا يكون في حال من أحواله؛ ولا في هيئة من هيئاته، ولا في عمل من أعماله أقرب من ربه منه في حال سجوده له، وتوضيح ذلك أنه لا شيء يقرب العبد من ربه كما يقربه السجود.

والسجود أهم أركان الصلاة، حتى لقد سميت الصلاة كلها سجوداً. قال تعالى: ﴿**وتقلبك في الساجدين**﴾ أي المصلين.

فما للعبد لا يجعل الصلاة وسيلة إلى الله تعالى. وقد أخبر الصادق الأمين ﷺ بأنه لا شيء يقرب العبد من ربه كما تقربه الصلاة.

وكيف تطوع للعبد نفسه ـ والنفس أمارة بالسوء ـ أن يلتمس وسيلة يزعم أنها تقربه إلى الله أكثر مما تقربه الصلاة.

تصور أنك أتيحت لك السعادة بالجلوس في مجلس رسول الله ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، وأنك سمعته يقول: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»، أفيبيح لك قلبك، وتطوع لك نفسك أن ترد عليه وتقول له: بل هنا أقرب من ذلك إذا توسل بذات فلان. أو أقسم على الله بحق فلان؟

تصور أن الشيطان سوّل لامريء، أن يقول ذلك القول، وأنه أطاعه وحرّك به لسانه، ثم احكم عليه وعلى إيمانه بعد ذلك، وما أظنك إلا من المنصفين.

يالله للمسلمين!

يقول الله تعالى: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**﴾. [النور: ٥١]. ويقول رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**».

وقد جاء عن الرسول بأن السجود خير ما يتقرب به إلى الله. وأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

ويأبى السفهاء إلا أن يخالفوا الله ورسوله. ويروا أفضل القرب إلى

الله أن يتوسلوا إليه بذوات العباد، وأن يقسموا عليه ـ تعالى ـ بحقهم، أو بجاههم. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

* * *

لم لا يكون هوى المؤمنين تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ.

ولِمَ لا يقولون: صدق رسول الله ﷺ، فلنتقرب إلى الله بكثرة السجود، ولِمَ يحاولون أن يجعلوا إلههم هواهم فيضلوا على علم؟

وأين هم عن قول ربهم ـ سبحانه ـ: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾.

* * *

قل للذين يخالفون ويتمادون في الضلالة، التي وجدوا عليها آباءهم: لم تتمادون في هذه الضلالة؟

إن كان ذلك لأنكم ترونها قديمة، فإن الحق أقدم منها.

إن كان ذلك لأنها قول العلماء، فقول الله ورسوله أحق بالاتباع وأجدر بالتصديق.

أخضعوا أهواءكم لكتاب الله وسنة رسوله، ولا تخضعوا كتاب الله وسنة رسوله لأهوائكم، فإن في ذلكم الخسران المبين.

* * *

يقول الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي ـ كما حدث عنه رسوله الأمين ﷺ ـ: «**قسمت الصلاة** ـ يعني الفاتحة ـ **بيني وبين عبدي نصفين. فإذا قال العبد**: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، **قال الله**:

**حمدني عبدي. وإذا قال العبد: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال الله تعالى: أثنىٰ عليَّ عبدي. وإذا قال العبد: ﴿مالك يوم الدين﴾، قال الله تعالى: مجدني عبدي. وإذا قال العبد: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، قال الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. وإذا قال العبد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ولا الضالين﴾، قال الله: هذه لعبدي ولعبدي ما سأل»**.

أنعم بهذه البشرى! وطوبىٰ لمن كان له فيها نصيب!.

ماذا تريد من الوسيلة إلا أن يستجيب الله لك، ويعطيك سؤلك؟ وإذا كان الله قد وعدك بأنه يستجيب لك إذا صليت وقرأت فاتحة الكتاب مسلماً إليه وجهك، مخلصاً له دينك، فماذا يحملك على أن تصرف وجهك عن الوسيلة التي يحبها الله ويرضاها ويدعوك إليها - إلى أسماء سميتها أنت وآباؤك ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أمر أن تتوسل بها، ولا جعلها وسيلة.

ماذا يضطرك إلى أن تتوسل بما لم يجعله الله وسيلة، أو تتقرب بما لم يجعله الله قربة، أو تزدلف بما لم يجعله الله زلفىٰ، وقد برح الخفاء ووقع الحق، وبطل ما كانوا يفترون.

أعيذك أن تكون من الذين يجادلون في الحق بعدما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

وأربأ بك أن تكون من الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق وحاش لله أن تكون من الذين يحول العناد والمكابرة بينهم وبين المسارعة إلى الحق حين يتبين لهم وتستيقنه أنفسهم أو تكون من

الذين قال الله في شأنهم: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾.

علمك ربك في فاتحة الكتاب كيف تتوسل إليه بحمده والثناء عليه وتمجيده وتخصيصه بالعبادة والاستعانة حين تسأله أعظم ما تصبوا إليه النفوس، وتهفو إليه القلوب وهو الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الصراط الذي يفضي بسالكه إلى السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

لا مطلوب أعظم من هذا المطلوب، ولا بغية أسمى من هذه البغية، ولا أمنية أعلى من هذه الأمنية، ومع ذلك جعل الله الوسيلة إليه في طلبها حمده والثناء عليه وتمجيده وخصّه بالعبادة والاستعانة، فلم لا تجعلها أيها ا لعاقل الحصيف والحازم الأريب وسيلتك إلى الله فيما دون ذلك من المطالب والرغائب؟

* * *

تمَّنى بعض الصحابة أن يكون رفيق رسول الله ﷺ في الجنة فقال له رسول الله ﷺ أعنّي على نفسك بكثرة السجود. فجعل رسول الله ﷺ الصلاة وسيلة إلى بلوغ هذه المرتبة السامية، والتوصل إلى تلك الدرجة الرفيعة، ولا أظن النفوس تطمح إلى مرتبة فوق هذه المرتبة، ولا أحسب القلوب تجنح إلى أمنية أسمى من هذه الأمنية التي تتضاءل دونها الأماني. وما الوسيلة إليها إلا الصلاة وكثرة السجود.

كيف لا تكون الصلاة خير ما يقربك إلى الله زلفىٰ ، وأنت تقف بين يديه خاشعاً خاضعاً تكبره فيصغر في نفسك كل ما في الوجود، وتناجيه فيتضاءل في نظرك كل مقصود، وتستحضر عظمته وكبرياءه فتخر له راكعاً وساجداً ترجو رحمته وتخشى عذابه؟

والقـول القـاهـر فوق الأقـوال جميعـاً هو قول الله تعـالى : **﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾** .

فالصـبر والصلاة خير ما يستعين على بلوغ مطولب وأفضل ما يتوسل به متوسل إلى نوال مرغوب .

وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

# الزكـــــاة

والـزكـاة وسيلة إلى الله تعالى وقربة، بل هي من خير الوسائل وأحب القرب إلى الله .

وكيف لا تكون الزكاة من خير الوسائل إلى الله تعلاى وفيها الجود بالمال، وهو حبيب إلى النفس، متصل بالقلب، يضن الإنسان كما يضن بروحه، ويحرص عليه كما يحرص على حياته وكثيراً ما يضحي الإنسان بنفسه دفاعاً عنه .

كيف لا تكـون الـزكاة من خير الوسائل إلى الله وفيها مغالب النفس التي أحضرت الشـح، وفيهـا قهـر غريزة حب التملك والاستئثـار بالنافع، وكيف لا تكون الزكاة وسيلة إلى مرضاة الله وداعية إلى الفلاح والله يقول: ﴿**ومن يوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ .

المـال قوام الحياة وميسّر أسبـابها، وقاضي حاجاتها، به تتيسر المطالب وتتحقق الرغائب، وتذلل المصاعب؛ وتنال لذائذ الحياة، ويستمتـع بمباهجها، ومسراتها، يكسب به الأصدقاء ويكبت به الأعداء، فالجود به على ذلك آية على صدق الإيمان وقوة اليقين، وعلامة على حب المؤمن لربه والرضى بحكمه، والوقوف عند أمره ونهيه، وإيثار طاعته، وبذل الضنائن في مرضاته .

ولـكن النـــاس لما رقَّ إيمانهم، وضعف يقينهم، وغلبهم شح أنفسهم ضنـوا ببـذل المال في سبيل الله، وابتغاء مرضاته وراحوا يلتمسـون الـزلفىٰ عنـده من كلٍ من سال لعـابه، وتمزق جلبابه واتسخ إهابه فضلوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً.

ألست تشعر معي أن بذل الزكاة دليل على أن باذلها مؤمن صادق الإيمان، واثق بوعـد الله، موقن أن الله سيخلف عليه ما أنفق، ويضاعف له الأجر، ويؤتيه من لدنه رحمة، ويهيء له من أمره رشداً.

هذه وسيلة ضل سبيلها، كثير من الناس بل أكثر الناس، وهل شيء أدعى إلى رضاء الله من التنفيس عن المكروب، الذي أخذ الفقر بكظمه، وضيّق عليه أنفاسه، وأجاع كبده، وكشف سوءته، وجعله نهباً للحر والقر، وسلّط عليه العلل والأسقام.

ما شرعت الـزكـاة عبثـاً، ولا فرضت على الأغنياء باطلاً، ما شرعت إلا لحكمة سامية ضل عن فهمها كثير من الأغنياء، فضنوا بأموالهم أن ينفقوها في سبيل الحق فباءوا بخسران مبين.

شرعت الزكاة لإصلاح المجتمع الإنساني، وصيانة مياه الوجوه، وجوه الفقراء أن تُراق تحت أقدام الأغنياء والموسرين.

شرعت الـزكـاة احتفـاظـاً بالكرامة الإنسانية وارعاءًا على عزة المؤمنين، وإبقاء على شرف أنفسهم.

شُرعت الزكاة ليعين الأغنياء الفقراء ويفرجوا عنهم ما هم فيه من ضيق، وكرب حتى لا تضطرهم الحاجة إلى ذل السؤال ولا تلجئهم

الفاقة إلى انتهاك حرمات الله والعدوان على أموال الأغنياء وأنفسهم .

شرعت الزكاة رفقاً بالمساكين وأبناء السبيل وبراً بهم، وإحساناً إليهم ودفعاً لعدوانهم، وصيانة للأغنياء من حسدهم وحقدهم وشرهم .

كثير من الشرور التي يشقى بها المجتمع الإنساني ناشئة من منع الزكاة فالدجالون والمحتالون والمتسولون واللصوص وقطاع الطرق، ثمرات مرة لمنع الزكاة، والبخل بحق الله في أموال الموسرين .

والفقر والجهل والمرض بعض الرزايا التي رمى بها المجتمع بخل الأغنياء بحق الله في أموالهم وما يوعود. كل إصلاح لا يعتمد على إيتاء الزكاة إصلاح مبتور منقوص فمادام شبح الفقر يجوس خلال القرىٰ والمدائن فلا أمل في إصلاح، ولا رجاء في إنقاذ .

من أجل ذلك قرن الله إيتاء الزكاة بإقام الصلاة. فلا تكاد تمر في القرآن الكريم بآية تأمر بإقامة الصلاة إلاَّ رأيتها تأمر كذلك بإيتاء الزكاة. فالصلاة لإصلاح الأنفس والقلوب. والزكاة لإصلاح المجتمع الإنساني وإقامة صرحه على أمتن الأسس وأقوى الدعائم .

فمن بذل الزكاة طيبة بها نفسه فقد أسهم في هذا الخير العام . وأعان على صلاح المجتمع . ووضع حجراً في بناء هذا الصرح، صرح النظام الاجتماعي . وفي ذلك مرضاة لله تعالى، وازدلاف إليه . والله لا يضيع أجر العاملين .

قد يسأل الفقراء محتجين معترضين قائلين : هذه الزكاة وسيلة

الأغنياء والموسرين، فما وسيلة الفقراء المعدمين الذين لا يجدون ماينفقون.

والجواب في قوله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾.

وفي قوله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**». [متفق عليه]

وفي قول الشاعر الحكيم:

**بث النوال ولا تمنعك قلته ... فكل ما سد فقراً فهو محمود**

ومعنى هذا كله أن الفقير يستطيع أن يتقرب إلى الله بالإيثار، وبصدقة التطوع مهما تكن قليلة، فإنها عند الله كثيرة، والقليل من المقل أكثر من الكثير عند المكثر.

# الصوم

والصوم وسيلة من أقرب الوسائل، وأدناها إلى مرضاة الله تعالى، وأحبها إليه، وحسبك أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي «**الصوم لي وأنا أجزي به**». [متفق عليه]

يترك المرء طعامه وشرابه ولذته امتثالاً لأمر الله تعالى، وازدلافاً إليه، وهو مؤمن به، محتسب ثوابه عنده، فكيف لا يرضى عنه؟ وكيف لا يفيض عليه من الخير والبركة مايجعل له به من كل ضيق مخرجاً، ومن كل كرب فرجاً؟!.

يتذوق ألم الجوع والظمأ والحرمان، فتأخذه الرحمة بالفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون.

يكون في خلوة وأمامه الطعام الشهي والماء البارد العذب والزوج الحسناء، فيدع ذلك كله مع توافر البواعث إليه، وقوة المغريات به طاعة لله تعالى ونزولا على حكمه، ووقوفاً عند أمره، فكيف لا يكون الصوم وسيلة إلى مرضاته، ومفتاحاً لخزائن رحمته، وسبيلاً إلى ما عنده من الخير والرضوان.

الحق أن الصوم من خير الوسائل التي تبتغى إلى الله تعالى، والعبد الموفق من وفقه الله.

فلنتوسل إلى الله بالصوم فرضه وتطوعه. فالصوم جُنة، ولنتخذ الصوم وسيلة إلى مرضاة الله، ولنقدمه بين يدي مطالبنا، ثم نبتهل إلى الله متوسلين إليه به. والله ـ سبحانه ـ قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

# الحج

﴿هل لك إلى أن تزكي وأهديك إلى ربك فتخشى﴾.

ومن ذا الذي ينكر أن الحج من خير ما يتزكى به الإنسان، ويتطهر من أرجاسه، ويتخلى من أدناسه؟

من أقرب إلى الله منك؟ وقد تطهرت من ذنوبك، وتزكيت من آثامك، وطفت ببيت ربك ترجو رحمته، ووقفت بالمشاعر العظام تبتهل إليه، وتذكره فيطمئن قلبك بذكره، وتدعوه مخلصاً له الدين حنيفاً، وقد هجرت إليه أهلك وولدك ووطنك، وأنفقت مالك في طاعته، وأنضيت بدنك وتحملت وعثاء السفر في سبيله؟ عبادة تجمع بين إنفاق المال على حبه، وإنضاء البدن مع فرط الحرص على راحته، وفراق الأهل والوطن؛ لا جرم أنها من خير القرب، ومن أحب وسائل الزلفى إلى الله تعالى.

قل لهؤلاء الأغنياء الذين ينفقون أموالهم في الموالد، ويقيمون المضارب والسرادقات، ويشدون الرحال لغير بيوت الله التي أذن أن تشد إليها الرحال: أنضيتم أبدانكم، وأتعبتم رواحلكم، وأنفقتم أموالكم في غير طائل. وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعا.

ليس شد الرحال لغير المساجد الثلاثة عبادة يثيبكم الله عليها، ولا قربة تزلفكم عنده، ولكنه إثم ومعصية لرسول الله الذي يقول:

**«لا تشدوا الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»**. [متفق عليه]

ومن يعص رسول الله فقد عصي الله، ومن عصي الله ورسوله فقد ضل ضلالاً بعيداً.

فاتخذ أيها المؤمن الموفق حج البيت وسيلة إلى مرضاة الله، واتخذ العمرة زلفىٰ إليه، يجب دعوتك ويرض عنك. ودع الطواغيت؛ فإنها لا تزيدك من الله إلَّا بعداً.

# خلاصـــــة

قد تبين لك الآن أن أقرب القرب وخير الوسائل التي تقربك عند الله زلفىٰ أداء ما افترض الله عليك.

فإذا امتلأ قلبك إيماناً بربك، ونشطت جوارحك لأداء العبادات التي افترضها عليك، فأقمت الصلاة، وسخت نفسك ببذل الزكاة، التي هي حق الله في مالك، وصمت رمضان إيماناً واحتساباً، وحججت بيت الله الحرام إن استطعت إليه سبيلاً، فلا جرم أنك من الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا. وأولئك هم الذي تتنزل عليهم الملائكة، ألَّا تخافوا، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدّعون، نزلاً من غفور رحيم.

ولا جرم أنك من أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولست بعد ذلك في حاجة إلى من يسفر بينك وبين ربك، أو يسترحمه لك، أو يسترضيه عنك، فهو يحب المتقين، ويتقبل منهم، ورحمته قريب من المحسنين.

قال تعالى: ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾. وقال تعالى: ﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾. وقال تعالى: ﴿**إنما يتقبل الله**

**من المتقين﴾** . وقال تعالى : **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾** .

تدبر ـ يرحمك الله ـ آيات ربك ، واحذر وساوس الشيطان . من كان الله حسبه فما حاجته إلى غيره؟

ومن ضمن الله أن يرزقه من حيث لا يحتسب . وأن يجعل له مخرجاً من كل ضيق ، فكيف يحتاج إلى سواه؟

وقد قال رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه :

**«ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ من أداء ما افترضته عليه»** .

فإذا كان ربك يقول لك : إن أحب ما تقرب إليه به المتقربون من عباده أداء الفرائض ، التي افترضها عليهم من إيمان به وتصديق برسوله وكتابه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، فكيف يزعم الزاعمون أن الوسيلة إلى الله إنسان من خلقه ، يتوسلون إليه تعالى بذاته ، أو يحلفون عليه تعالى باسمه .

حاش لله ما جعل ذوات الخلق وسيلة إليه ، ولا جعل أسماءهم أيماناً يقسمون بها عليه .

هيهات هيهات لما يزعمون!

# نوافل الخير

إذا أديت ما افترض الله عليك فقد أرضيت ربك، وتقربت إليه بأحب القرب، وكنت أعبد الناس، فإذا سمت نفسك إلى أن تزداد قرباً من الله تعالى، ودفعك حبك لجلاله، وعرفانك بفضله، وحسن قدرك لنعمته إلى أن تمعن في الاعتراف بالذل له، والإقرار بأصدق العبودية لذاته، فرغبت في أن تتقرب إليه ـ تعالى ـ بالنوافل من صلاة، وصدقة، وصيام وحج وعمرة، وبر. فافعل فإن ذلك يزيدك قرباً من ربك، ويجعلك من أحبابه الذين يوالي عليهم لطفه وبره، ويغدق عليهم نعمه وإحسانه. قال رسول الله ﷺ فيما روى عن ربه: «**مازال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه... فلا دعا إلا أجبته ولا سأل إلا أعطيته**». [متفق عليه]

فإذا كانت نوافل الخير تقرب إلى الله تعالى، وتُفضي بالعبد إلى أن يحبه الله، وإلى أن يجيبه إذا دعا، ويعطيه إذا سأل. فما بال الناس تقعد بهم الهمم عن إدراك هذا الفضل العظيم، فيذرون هذه الوسائل التي هي من أشرف الوسائل؛ ومن أفضلها تقريباً إلى الله تعالى واسترضاء له، إلى وسائل ما أنزل الله بها من سلطان. وليس لهم بها من برهان. ولا في أيديهم حجة من كتاب ولا سنة.

# التوبة والاستغفار

هل أدلكم على وسيلة تقربكم إلى الله زلفى، وتجعلكم في صفوف البررة الأخيار؟

تتوبون إلى الله توبة نصوحا، وتستغفرونه لما سلف من خطاياكم ـ وكيف لا تكون التوبة وسيلة العبد إلى ربه! والتائب إنما يقع عن الإثم حياء منه، ويأخذه الندم على الخطيئة خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، ويعزم على مجانبة الذنوب ابتغاء مرضاته.

وكيف لا يرضى الله عن هذا الذي خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى. وقد جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة**» متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته فأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، واضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته. فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها**».

لا جرم أن هذا الذي عادت إليه راحلته ـ وهي كل ما يملك بعد يأس من عودتها، وانقطاع أمل في الحصول عليها ـ شديد الفرح بعودتها، عظيم الغبطة برجوعها. والله ـ سبحانه وتعالى ـ

أشد فرحاً من صاحب الراحلة بعودة راحلته. وإذا فرح الله بتوبة عبده رضي عنه، وقربه عنده زلفىٰ.

* * *

والاستغفـار من مفـاتيح رحمـة الله، قال ـ تعـالى ـ: ﴿**فقلت استغفـروا ربكم إنـه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً**﴾. [نوح: ١٠ ـ ١٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليـه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤتِ كل ذي فضل فضله**﴾. [هود: ٣].

فهذه خزائن رحمة الله بين يديك ومفاتيحها الاستغفار.

الاستغفار ثمرة الندم، ووليد التوبة، فمن خاف مقام ربه فتاب إليه، وندم على ما اقترف من آثام. ثم سأل الله المغفرة، فهو جدير بأن يتوب عليه ويغفر له، ويفتح له أبواب رحمته، وخزائن فضله.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾.

وروى أبوداود عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفـار جعـل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كل همٍّ فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب**». [رواه أبوداود والنسائي وابن ماجه والحاكم].

وروى البخاري عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي

ﷺ، قال: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**». [رواه البخاري]

من قالها في النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة.

## زعم باطل

يزعم الذي لا يعلمون الحق فهم معرضون، أن المذنب الأثيم لا يستجيب الله دعاءه، ولابد له من شخص طاهر الأنفاس، يتوسل بذاته إلى الله تعالى، حتى يستجيب له. وهذا ضلالٌ مبين.

فإن المذنب الأثيم في وسعه أن يقلع عن ذنبه، ويتطهر من إثمه، ويتوب من خطيئته، ويقبل على ربه، فيقبل عليه، ويستجيب له.

ودليلنا على ذلك قول الله: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ صدق الله العظيم، وكذب الأئمة الظالمون، الذين يصرون على الحنث العظيم، ثم يزعمون أن الناس يقربونهم إلى الله زلفى، ويقولون هذه المقالة الآثمة، التي قالها المشركون في ظلمات جاهليتهم، وأخبرنا الله ـ تعالى ـ بها في قوله الحكيم: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ**﴾ فما أحرانا أن نجتنب أقوال المشركين وأفعالهم، ونطهر أنفسنا من الاقتداء بهم.

بيَّن الله تعالى لك أوضح بيان أن العبد إذا اقترف الآثام، أو قصّر في أداء حقه تعالى، ثم أراد أن يتطهر من أوضار ما اقترف، فماعليه إلا أن يقبل على الله بقلبه؛ ويندم على سوء فعله، ثم

يستغفر الله، ويتوب إليه، فإن فعل غفر الله له ورحمه، ولم يحوجه إلى أحد من خلقه، ولكن أكثر الناس عن الحق معرضون وعن الوسيلة المشروعة غافلون

وبعد، أفليس من أسوأ الخذلان أن ينصرف الإنسان عن هذا الفضل العظيم، الذي أثبته الله ورسوله؛ إلى وسائل دعا إليها الهوى، ووسوس بها الشيطان؟

إن يتبعون إلاَّ الظن، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى.

# وسائل أخرى
## الدعاء

والدعاء خير ما تستفتح به أبواب الخير والرحمة والإحسان.

وإذا آمن العبد بأن له إلهاً قادراً سميعاً مجيباً، ودعاه تضرعاً وخفية. وأسلم وجهه إليه وهو محسن. فكيف لا يستجيب له، وهو يقول في القرآن الكريم، وقوله الحق: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾.

والدعاء عبادة تقرب إلى الله تعالى، والذين يستكبرون عن عبادته فلا يدعونه، ولا يبتهلون إليه ـ كفار يستحقون العذاب المهين يوم القيامة، وسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين.

ويقول تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾.

فقد وعد ـ سبحانه ـ بإجابة الداعي إذا دعاه، ولكن على أن يستجيب الداعي له، ويؤمن به، لأن الدعاء بغير إيمان: باطل، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾.

وليكن دعاؤك في ذلة وضراعة وخضوع وخشوع. وليكن سرًّا بينك وبين ربك. فهو أبعد عن مظان الرياء. وأقرب إلى مواطن

الإخلاص، وأجدر بالإجابة. وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين**﴾ وقد فسر الاعتداء برفع الصوت بالدعاء.

والسجود من خير مواطن الدعاء. ولذلك يقول ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء**» رواه مسلم.

ولا ينبغي للإنسان أن يعجل أو يستبطيء الإجابة. فقد قال رسول الله ﷺ: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يُستجب لي**» متفق عليه.

والدعاء مع الإخلاص مستجاب على كل حال. فقد قال ﷺ: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله ـ تعالى ـ بدعوة إلاَّ آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**». فقال رجل من القوم: إذاً نكثر.قال ﷺ: «**الله أكثر**» [رواه الترمذي]

وهأنذا أورد عليك أمثلة من دعائه ﷺ: لتدعو بها أو بمثلها. وعلى قدر إخلاصك وصبرك وثقتك بربك تكون الاستجابة لك.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**».

[متفق عليه]

وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**» رواه مسلم.

وعن طارق بن أشيم قال: كان الرجل إذا أسلم علّمه النبي ﷺ

الصلاة ثم أمره أن يدعو بهذه الكلمات:

«اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**تعـوذوا بالله من جهـد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**» وعنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمـري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخـرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي من كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**» رواه مسلم.

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لرسول الله ﷺ: علّمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «**قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**». [متفق عليه]

ومن أدعيته ﷺ التي جاءت في كتب السنة الصحيحة:

ـ «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني**». [متفق عليه]

ـ «**اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطأي وعمدي، وكل ذلك عندي**».

ـ «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**».

ـ «**اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل**».

ـ «اللهم إني أعـوذ بك من زوال نعمتـك، وتحـول عافيتـك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك». [رواه مسلم وأبوداود والترمذي].

ـ «اللهم إني أعـوذ بك من العجـز والكسل، والبخل والهرم، وعذاب القبر». [رواه مسلم]

ـ «اللهم آت نفسي تقـواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

ـ «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها».

ـ «اللهم لك أسلمت، وبـك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت».

ـ «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، واغنني بفضلك عمن سواك».

ـ «اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي».

ـ «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني].

ـ «اللهم إني أسـألـك موجبـات رحمتـك، وعـزائم مغفرتك، والسـلامـة من كل إثم، والغنيمـة من كل بر، والفـوز بالجنة، والنجاة من النار».

ـ «اللهم إني أعـوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والمهات». [متفق عليه].

- «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**». [رواه الترمذي رقم (١٥٥٥)]

تلك دعوات جامعة لخيري الدنيا والآخرة، من دعاء من آتاه الله جوامع الكلم ﷺ، فادع الله بها، أو بمثلها مع التضرع والإخلاص يستجب الله لك، ويقربك إليه زلفىٰ.

# فضل الدعاء

ومما يؤثر في فضل الدعاء عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ من وصية لابنه الحسن تغمده الله بالرحمة قال:

واعلم أن الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه. ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيرك بالإنابة، ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم ييئسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب المتاب، فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك. واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان وسعة الأرزاق، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أُخرت

عنـك الإجـابـة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتا، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجـلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك. فلرب أمر قد طلبت فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك لما يبقى لك جماله، وينفي عنك وباله.

# الذكـــــر

الذكر وسيلة من الوسائل التي غفل عنها كثير من الناس، وقربة من القرب التي فرطوا في جنبها، وقصروا في ذاتها.

ألم يكفك أن الله ـ تعالى ـ يقول في فضل الذكر ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ أفلا تحب أن يذكرك الله بالرحمة والخير والفضل.

ألا تستجيب لربك إذا دعاك لذكره وتسبيحه، إذ يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً**﴾.

وإذ يقول: ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾.

إن الذكر سبب من أسباب الغفران. ووسيلة من وسائل الظفر بالأجر العظيم. قال ـ تعالى ـ: ﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾.

وبالذكر تطمئن قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾.

وبذكر الله تشعر قلبك هيبة وخشية، فتوجل من المعصية، وتنفر منها، وتقبل على الصالحات، ترجو بها ثواب ربك ورحمته.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾.

ففي الذكر إيقاظ للقلب وتنبيه للنفس، وسمو بالروح إلى حظيرة القدس، ومراقبة لله القائم على كل نفس بما كسبت، واستغراق في شهود آيات الله تعالى ودلائل حكمته وقدرته وعظمته، ومزيد من الإخلاص والإحسان. فمن وفقه الله لذكره وشكره، فهو السعيد حقًّا وهو الموفق حقًّا.

لقد كان تسبيح يونس ـ عليه السلام ـ سبباً في نجاته من الكرب العظيم، الذي حل به حين التقمه الحوت، وهو مليم. قال ـ تعالى ـ: ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون**﴾.

وأن رسول الله ﷺ ليحبب إلينا الذكر، ويحضنا عليه بالأقوال الحكيمة، التي وصف بها فضل الذكر، وأوضح مزاياه.

قال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» متفق عليه.

وقال ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا**

**الله، والله أكبر. أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»** رواه مسلم.

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ سبحان الله وبحمده»** رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال، تحجون، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون. فقال: **«ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل صنيعكم؟»** قالوا: بلى يارسول الله قال: **«تسبحون، وتحمدون، وتكبرون، خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»**.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله ـ تعالى ـ: **«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير من ملئه»** متفق عليه.

أفلا تقنعك كل هذه الأقوال الحكيمة بأن الذكر من خير الوسائل إلى مرضاة الله ورحمته، فماذا يصرفك عنه إلى وسائل يدعوك إليها الهوى والكسل والشح. ويغريك بها الشيطان، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

# الصبر

بين يديك الطريقة المثلى، والصراط المستقيم، والسبيل التي تفضي بسالكها إلى الفوز العظيم، تلك هي فضيلة الصبر.

فهل لك أن تسلك سبيلها مع السالكين؛ لتفوز بما وعد الله الصابرين في قوله - تعالى -: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾. وفي قوله - تعالى -: ﴿**إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾. وفي قوله - سبحانه -: ﴿**وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾. وفي قوله - تعالى -: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾.

فها أنت ذا ترى ما أعد الله تعالى من حسن المثوبة للصابرين، يدخل عليهم الملائكة من كل باب، ويقرءون عليهم السلام بما صبروا، ويبشرهم الله - تعالى - بالصلوات والرحمة، ويصفهم بالهداية. وقد أخبر - جل ذكره - أنه مع الصابرين، يؤيدهم

بنصره، ويشد أزرهم بمعونته، ويقيهم شر الخسران في الدنيا والآخرة.

أفـلا يقنعـك كل هذا بأن الصـبر من القرب التي يزدلف بها الصابرون إلى ربهم، ويرجون بها رحمته، ويتقون بها عقابه؟

أليس من الإيمان أن يحتمل المرء ألم المصيبة ابتغاء وجه الله وإيماناً به، واحتساباً للأجر عنده، ورضا بقضائه وقدره. ؟

أليس من الإيمان أن يصطبر المرء على مكاره الطاعات، ويوطن نفســه على ما تكره من مشاق العبادات، فيسعى إلى المساجد في حمارّة القيظ، وصبارة البرد، وينفق المال الذي تضن به النفس في الزكاة ووجوه البر، ويحرم نفسه من مشتهياتها في الصوم، ويعرضها للقتل في الجهاد؟

أليس من الإيمان أن يمســك نفســه عن الشهوات وهي محببة إليهـا، ويكفهـا عن المعـاصي، وهي حريصة عليها راغبة فيها، ويذيقها ألم الحرمان من لذائذ تصبو إلى تذوقها وارتشاف المحرم من رحيقها.

الصبر وسيلة من وسائل الظفر والفوز بمطالب الدنيا والآخرة. واتل إن شئت قول ربك ـ سبحانه ـ: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾.

تلك هي بعض مزايا الصـبر، ولـذلك كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

فالسعيد من اتخذ الصبر وسيلة إلى مرضاة الله ـ تعالى ـ وجُنة من غضبه. وسبيلاً إلى رحمته. إن الله مع الصابرين.

# الصلاة على النبي - ﷺ -

ليس من شك في أنك تحب النبي ﷺ، وأنك تحبه كل الحب، وأنك تحبه حبًّا لا تحبه أحداً من العالمين، وأنك تحبه أكثر من مالك وولدك والناس جميعاً، وأنك تحبه آخر الأمر أكثر مما تحب نفسك التي بين جنبيك.

أغلب ظني بل يقيني أنك تقرني على ذلك، وأنك لا تخالفني فيه لأنك مؤمن صادق الإيمان، كما هو عهدي بك، بل وظني فيك، ولا يكمل إيمان المرء حتى يحب النبي ﷺ أكثر مما يحب ولده ووالده والناس أجمعين، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**فوالذي نفسي بيديه لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**». وعن عبدالله بن هشام قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب. فقال له عمر: يارسول الله! لأنت أحب إليَّ من كل شيء، إلَّا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنه الآن. والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن ياعمر**».

هذا الحب من خير الوسائل التي تقربك إلى الله تعالى، وحسبك دليلاً على ذلك قول النبي الحبيب ﷺ: «**المرء مع من أحب**».

روى البخاري عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها؟**» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله قال: «**أنت مع من أحببت**». [متفق عليه].

قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبابكر وعمر. وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

ألا تسرك هذه البشرى؟ ألا تملأ قلبك أملاً بأن تكون مع النبي ﷺ لصادق حبك إياه؟

ألا تدفعك هذه البشرى إلى أن تخلص الحب للنبي ﷺ وإلى أن تجعل حبك صادقاً غير كاذب، وخالصاً غير مشوب، وصريفاً غير مدخول.

إن من حبك للنبي ﷺ أن تحب له الخير، وأن تعمل على إحياء سنته، وعلى أن يكون ثوابه موصولاً غير مقطوع، ولا يكون ذلك إلا بعملك بسنته. فقد قال ﷺ: «**من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها إلى يوم القيامة**». [رواه مسلم]

فكل من عمل بسنة النبي ﷺ مخلصاً، فله ثواب عمله. وللنبي ﷺ مثل ثوابه، يتجدد بتجدد العاملين، ويتكرر بتكرر المتبعين.

فالمحب الصادق لرسول الله ﷺ هو من يحرص على أن تظل مثوبة النبي ﷺ متصلة وعمله غير منقطع، وثوابه غير مجذوذ باتباعه لسنته واستمساكه بهديه.

وقد أمرنا الله ـ تعالى ـ بالصلاة على النبي ﷺ بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾.

وأخبرنا الحبيب ﷺ بأن من صلَّى عليه مرة صلى الله عليه بها

عشراً. وما صلاتنا عليه ﷺ إلاّ دعاء وابتهال إلى الله ـ تعالى ـ أن يرفع ذكره، ويوالي عليه رحمته ورضوانه وإكرامه وإحسانه.

فأكثـر من الصـلاة على النبي ﷺ، واجعل لسانك رطباً بها، وقلبـك عامـراً بنـورها، وفكرك متجهاً إلى قدوتك الحسنة ونبيك الأكمل، الذي جاء بالهدى ودين الحق.

أكثر من الصلاة على النبي ﷺ واجعلها وسيلة لك إلى مرضاة الله.

صلِّ على النبي ﷺ صلاة منبعثة من قلب محب له، حريص على طاعته. وتقرب بذلك إلى الله ـ تعالى ـ يقربك الله إليه، ويسعدك في الدنيا والآخرة.

أليس ذلك خيراً وأبقى من أن تتقرب إلى الله تعالى بشخصه ﷺ أو تقسم على الله به أو بجاهه أو بغير ذلك، مما لم يرد عنه ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين المهديين ـ وقد نهاك ﷺ عن أن تقسم إلا بالله بقوله الصادق «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليسكت**».

وقبل أن أختم هذا الفصل أرى لزاماً عليّ أن أنبهك إلى أن خير عبارة للصلاة على النبي ﷺ: هي التي أمرنا الرسول ﷺ أن نجعلها في الصلاة هي:

«**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد**».

تلك خير صيغة للصلاة على النبي، فصل عليه بها ولا يخدعنك ما وضعه الواضعون، وألفه المؤلفون.

# صدقة التطوع

هل لك إلى أن تبتغي الوسيلة إلى ربك بالصدقة والبر بالفقراء والمساكين، ومسح دموع البائسين المحرومين، وإطعام الجائعين، وكسوة العارين، وسد عوز المحتاجين، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**إن المصَّدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم**﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»(١). وقال ﷺ: «**الصدقة تطفيء غضب الرب**». وقال صفوة الخلق: «**داووا مرضاكم بالصدقة**». وقال خاتم النبيين: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب. فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربى أحدكم فُلوّه حتى تكون مثل الجبل**». وقال ﷺ: «**ما نقص مالٌ من صدقة**».

يدعوك ربك إلى البذل، ويعدك عليه حسن المثوبة، وكريم

(١) أخرجه البخاري ومسلم بسندهما عن عدي بن حاتم.

الأجر، ويهيب بك نبيك ﷺ إليه، ويرغبك فيه، ويحضك عليه. فهل لك إلى أن تستجيب لله ورسوله وتنفق الفضل من مالك ابتغاء مرضاة الله، وتتخذ ذلك قربات عند الله؟

ما أعظم هذه الوسيلة وما أجلها!

ماذا يزهدك في هذا الأجر العظيم، وماذا يرغبك عن هذا الفضل الكبير الذي وعدك الله به ووعده الحق؟

حذار أن يفتنك الشيطان، ويعدك الفقر فيصرفك عن هذا الخير العظيم، والغنم الكبير، ويغريك بوسائل ما أنزل الله بها من سلطان.

لا تنصرف عن هذا اليقين الذي لا شك فيه، ولا تطوف بجنباته الأوهام، إلى أباطيل لا يمليها عليك إلا الوهم، ولا يحسنها لك إلا الشيطان.

لا تستكثر التضحية في سبيل الله، ولا تستثقل البذل ابتغاء مرضاته، ولا يستخفنك الشيطان، فتدع ذلك الخير كله، ويغلبك الشح على أمرك، فتلجأ إلى الأباطيل، تتخذها وسيلة إلى مرضاة الله. وهي بضاعة البخلاء الأشحاء، الذين غلّ البخل أيديهم، وأوصد أبواب الخير في وجوههم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

# التوكل على الله

والتوكل على الله من خير القربات، إن صدقت فيه النيات.

كيف لا وهو ثمرة إيمان صادق، يملأ القلب ويهيمن على النفس؟.

أليس من الإيمان أن توقن أن ربك سميع الدعاء، وأنه قريب مجيب، فتكل إليه أمورك، وتبرأ إليه من حولك وقوتك وترجوه في تحقيق آمالك وإنجاح مطالبك، وتسعى في سبيل رزقك معتمداً عليه، مفوضاً أمورك إليه، عالماً أن بيده الخير، وأنه على كل شيء قدير، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، موقناً أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك. وأنه إن ينصرك فلا غالب لك، وإن يخذلك فلن تجد من دونه وليًّا ولا نصيراً.

وقد جعل الله التوكل شطراً من الإيمان الحق، قال ـ تعالى ـ: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾**.

فما حاجتك إلى الناس بعد هذا الإيمان، وبعد هذا اليقين؟

ما حاجتك إلى مخلوق مثلك عاجز ضعيف، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا، تقدمه بين يدي دعائك، وتتخذ ذاته وسيلة إلى الله تعالى.

إن لم ينفعك إيمانك فلا نفعك شيء بعده.

إن لم يُجد عليك يقينك فلا أجدى عليك شيء سواه.

إن لم تغن عنك ثقتك بربك، وتوكلك عليه فهيهات أن يغن يغني عنك الناس جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وحسبـك دليلاً على أن توكلك على الله ـ تعـالى ـ خير وسيلة تزدلف بها إليه قوله تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾.

فقد بيَّن الله ـ تعالى ـ لك خير بيان وأصدقه، أنه جعل جزاء من يعتمد عليه أن يكون حسبه وكافيه، ومن كان الله حسبه وكافيه فما احتياجه إلى الناس من بعده؟

وقد بين لك تعالى أنه جل شأنه بالغ أمره، لا يعجزه شيء، ولا يستعصي على قدرته مراد ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكـون**﴾ وقـد جعـل لكـل من سواه حدًّا لا يعـدوه، وقـدراً لا يتجاوزه. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يحدثنا الله ـ جل شأنه ـ في القرآن الكريم عن المؤمنين السابقين. وكيف كان توكلهم على ربهم، سببـاً في نصرهم وظفـرهم، قال تعالى: ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زداهم إلاَّ إيماناً وتسليماً**﴾.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**﴾.

والمثل الأعلى لحسن التوكل على الله رسول الله ﷺ فقد كان لصدق توكله على الله، وصحة اعتماده عليه يواجه الأخطار أيًّا ما تكن شدتها، ويلقى الأعداء مهما تكن قوتهم. روى البخاري ومسلم عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن بالغار، وهم على رءوسنا فقلت: يارسول الله! لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

وقال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة فاخترطه فقال: أتخافني؟ قال: «**لا**» فقال: من يمنعك مني؟ قال: «**الله**» فسقط السيف من يده. فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال: «**من يمنعك مني**»؟ فقال: كن خير آخذ. فقال: «**أتشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**» قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وقد أراد ﷺ أن يعلم أمته حسن التوكل على ا لله تعالى لعلمه أنه من تمام الإيمان، وأنه من خير ما يتقرب به إلى الله تعالى. ومن أفضل ما تبتغى به إليه الوسيلة فقال ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل لرزقكم، كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا**». [رواه أحمد والترمذي]

وقال ﷺ: «**من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على**

**الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قالت له الملائكة: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان**». [رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤١٩).]

فيالله! ما أعظم هذا الفضل الذي غفلٍ عنه الناس، وأخذوا يتعلقــون بالأوهـام التي لا تغني عنهم فتيلاً، ويتـوسلون بذوات أشخاص، ما يملكون من قطمير.

وأعيذك أن يسوء فهمك للتوكل، فتحسبه الركون إلى الكسل، والقعـود عن العمـل. وترك الأخذ بالأسباب كمايفهمه الجاهلون القـاعدون المتخاذلون، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

بل التـوكـل أن تعتمـد على الله في إنجاح مسعاك مع أخذك بأسبـاب النجاح، وسعيك في سبيل الظفر، وبذْلك كل ما تقدر عليه من جهد وطاقة، ثم تكل ما لم تقدر عليه لله تعالى القائم على كل نفس بما كسبت.

وقد مثل رسول الله ﷺ لحسن التوكل على الله بعمل الطير، لا تملك حرفـة تدر عليها رزقاً، ولا تملك ضيعة ولا مزرعة، ولكنها تغـدو من عشها متوكلة على الله خالقها ورازقها. فيسهل الله لها الرزق فتعود آخر اليوم وهي ممتلئة البطون من الطعام الذي سخره الله لها بفضل سعيها وجدها وغدوها للبحث عن رزقها ـ وهو كل ما تقدر عليه ـ وربك على كل شيء قدير.

# الاستقامـــة

نعم الاسم الاستقامة على الطريقة.

وليست الاستقامة إلاَّ لزوم طاعة الله تعالى.

وقد علمت مما أسلفت لك أن العبد لم يتقرب إلى الله بشيء أحب إليه من طاعته، وهي أداء ما ا فترض عليه، واجتناب ما نهى عنه.

وما أجمل الوعد الحسن الذي وعد الله المستقيمين!

وما أحسن ما أعد لهم من الفضل الكبير في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم**﴾.

ألا يرضيك أن تتنزل عليك الملائكة، تزف إليك بشرى الأمن والطمأنينة والمسرة والنصرة في الدنيا والآخرة.

أتبتغي منزلة وراء ذلك، وتلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟

قال تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله**

**عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً﴾** .

فابتغ الوسيلة إلى ربك بلزوم طاعته، والاستقامة على الطريقة تنل ما أعد الله للمستقيمين من الفضل العظيم. قال ـ تعالى ـ: **﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً لنفتنهم فيه﴾** .

وقال تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون﴾** .

فما للشيطان يعبث بعقول بعض الناس حتى يصرفهم عن هذا الفضل العظيم، ويورطهم في أمور أقل ما توصف به أنها محبطة لأعمالهم، موقعة لهم في الخسران المبين؟

الاستقامة على الطريقة من أعظم الوسائل التي تبتغى إلى الله تعالى لا ذوات أشخاص لن يستنكف أكبرهم أن يكون عبداً لله، بل أسمى نعوت أفضلهم أن يكون عبداً لله.

إن ما بسطت لك القول فيه من العبادات والقرب هو الوسائل التي تقربك إلى الله وتزلفك عنده، وترضيه عنك.

أما اتخاذ ذوات الأشخاص وسائل إلى الله تعالى فباطل من الظن، وخدعة من خدع الشيطان. فلا تخدعن نفسك بالأباطيل، ولا تصرفها عن الحق الصراح إلى الباطل الذي لا أصل له، ولا غناء عنده.

ولو أنك راجعت نفسك لعلمت علماً لا يعترضه الشك أن

الوسيلة الحق هي ما قدمت لك من ألوان العبادات وضروب الطاعات.

ولو أنك أمعنت النظر فيما جلوت عليك من آيات الكتاب الكريم، ومن حديث الرسول الأمين ﷺ لوجدت الشُّبَه تنزاح عنك، والشكوك تنصرف عن قلبك، واليقين يثلج صدرك، ويقر عينك، وليس بعد الحق إلا الضلال.

* * *

وبعد فليس ما جلوت عليك هو كل ألوان الطاعات، وأصناف الوسائل، وضروب القرب، فطرق الخير كثيرة، وشعب الإيمان عديدة، وإنما اكتفيت بهذا القدر ليكون نموذجاً لغيره، ومثالاً يحتذى، فتقرب إلى الله بالطاعات، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك، واتق يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون.

# ٤ ـ الأمر بالجهاد في سبيل الله

الجهاد حصن الإسلام وسياجه، وقوام الدين وعماده، ومعقل الدولة الأشب، وركن الأمة الركين، فيه حماية الذمار وصيانة الديار، وخضد شوكة العدو، وفلّ حدهم، وإرهابهم وإذهاب ريحهم، وكبح جماح مطامعهم.

وفيه قوة الإسلام وعزته، ورهبة جانبه، وأمنه وطمأنينته، وشجو حساده، وغيظ عدوه، واتساع رقعة بلاده، وبسطة نفوذه، وقوة سلطانه، ونفاذ كلمته. ما تركه قوم إلَّا ذلوا وذهبت ريحهم، وسيموا الخسف، وديثوا بالذلة والصغار وطمع فيهم عدوهم، وأمسوا على جناح خوف. وبمدرجة حتف. وباتوا غرباء في أوطانهم. لقمة كل جائع ونهبة كل طامع. يجوعون ليشبع أعداؤهم. ويعرون ليكتسي غاصبوهم. ويشقون ليسعد الطامعون فيهم.

ولعلك ترجع بذاكرتك إلى تلك العصور الغابرة، عصور عزة الإسلام ومجده وصولته. فترى أثر الجهاد في إعلاء كلمة الله. وبث العدالة في الأرض وإشاعة النظام بين الأمم. ورفع الإصر والأغلال التي كانت عليهم. وتأمين السبل. والضرب على أيدي المفسدين، ونشر الأمن والطمأنينة، وإسعاد كل من انضوى تحت لواء الإسلام، وآوى إلى ظل عدله.

لعلك تعود بخيالك إلى تلك العصور فتدرك كيف ثل عروش الظالمين وخضد شوكتهم. وأدال منهم. وأحل العدل محل الظلم، وأقام الحرية مقام العسف والاستعباد. وقضى على الفوضى التي كانت قد ضربت بجرانها ومدت أطنابها على العالم. وأرهب المستبدين. ورض صوالجتهم لا طمعاً في الغلب، ولا حرصاً على الفتح والاستعمار، ولا رغبة في بسط النفوذ على الأمم والشعوب المستضعفة. ولكن برًّا بالإنسانية. وإنقاذاً للشعوب الضعيفة من مخالب الظلم، وبراثن الاستعباد. وإقامة لشعائر العدل. وهدماً لصروح الطغيان.

لم تكن دعوة الإسلام إلى الجهاد طمعاً في الاستئثار بالمنافع المادية، ولكن لإعلاء كلمة الحق. ولإنقاذ الأمم من ردغة العقائد الفاسدة. وفك رقابهم وتحريرهم من سلطان من يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس رجال الدين الذين كانوا يتحكمون في الضمائر والنفوس، ويبسطون سلطانهم على القلوب، ويحرمون التفكير الحر، ويحولون دون النظر في ملكوت السموات والأرض.

شرع الجهاد لتمكين الناس من النظر الصحيح، واعتناق الدين الحق، ورفع الحجر عن العقول والضمائر والأفكار، وإطلاق الحرية للناس يعتقدون مايهديهم إليه النظر الصحيح، ويدينون دين الحق من حيث لا يفتنهم عن دينهم أحد ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الراشد من الغي**﴾، ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾.

طعن في الإسلام فريق ممن أعماهم التعصب، فتاهوا في بيداء الجهالة، وضلوا في مفاوز الضلالة. وقالوا: إن الإسلام قد انتشر

بالسيف! كذبـوا. فما امتشق الإسـلام الحسام ليكره الناس على الإيمان. ولكن ليفسح الطريق أمام دعوة الحق التي قام في سبيلها الجاهلون، والمعاندون والمتعصبون والمستكبرون.

ولو أنهم تركوا دعوة الحق تسير في سبيلها. وتسلك طريقها. لم يعترضوها ولم يحولوا دون نشرها ما جرد الإسلام سيفاً. ولا اعتقل رمحاً. ولا امتشق حساماً، ولا فوّق سهماً ولا سدّد نبلاً.

ولو سلمنا جدلاً وقلنا مع القائلين: إن الإسلام أرغم الناس على الإيمان بقوة السيف وحد الحسام، لم يضره ذلك شيئاً، ولم يقدح في سمو غايته.

ألست تحمـل ابنـك بالقـوة على اعتنـاق الفضيلة، واجتنـاب الرذيلة؟ ألست ترغمه على سلوك الصراط السوي، وتنكب سبل الغواية، فهل يلومك في ذلك لائم؟ أم هل يعيبك في ذلك عائب؟

إنـك تستحق اللوم، وتستوجب التثريب لو أنك تركت ابنك القاصر يسير مع الهوى، ويسلك سبل الفساد، وألقيت حبله على غاربه، حتى فسد، وجره الفساد إلى الشقاء.

ومـاذا على الإسـلام وهو دين الحق لو حمل الشعوب القاصرة الجاهلة الضالة على سلوك سبل الهداية، واعتناق مكارم الأخلاق من حيث لا يريد استعماراً ولا استبداداً ولا ظلماً، ولا هضماً، ولكن تريد تعليماً وتهذيباً وترقية وعدلاً؟

أفلا ينظر هؤلاء إلى الدول التي تزعم لنفسها رعاية الرقى والمدنية كيف تفعل بالأمم الضعيفة؟

أليست تسلط عليها حديدها ونارها، وتصب عليها وابلاً من المهلكـات المدمرات، لكي تستحوذ عليها وتخضعها لأمرها، ولا لتشيع فيها العدل والإحسان، وتنقذها من الظلم والطغيان، ولكن لتتخـذ أفرادها عبيداً تسومهم الخسف، وتذيقهم سوء العذاب، وتشيع فيهم الفـاحشـة، وتفسـد أخـلاقهم، وتـرميهم بالتفرق، وتمتص دماءهم، وتغلبهم على ما يفيض الله عليهم من رزق، وما تخرجه أرضهم من حب ونبات، وليفرضوا عليهم أن يشتروا ما تخرج مصانع الغالبين بالثمن الذي يريدون، وأن يجعلوا أرضهم مستغلا لهم، يأخذون سا تجود به بغير ثمن أو بأبخس الأثمان.

فهـل يستـطيع أحد حتى أشد الناس تعصباً أن يتمسك على الإسلام بشيء منها؟

على أن الإسـلام لم يدعُ إلى سبيل الله إلا بالحكمـة والموعظة الحسنة، ولم يجادل إلا بالتي هي أحسن.

ولكنـه أبـاح قتـال من يقـاتـل، وصـد عدوان المعتدي. قال - تعالى -: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾.

***

وبعد فقد جمح بي القلم. فخضت فيما لم أكن بسبيل القول فيه، إنما غايتي أن أبين لك أن الجهاد أصل من أصول الإسلام، وأنه من خير الوسائل التي تبتغى إلى مرضاة الله.

والجهاد هو التضحية بالنفس والمال في سبيل الله للقضاء على الفتنة، وإعلاء كلمة الله.

وقـد دعـا الإسلام إلى الجهاد دعوة عازمة لا هوادة فيها، قال ـ تعالى ـ: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

وقـال ـ تعـالى جده ـ: ﴿إن الله اشـترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليـه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًّا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

وقـال ـ سبحانه ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنـوبكم ويـدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها

**نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾.**

* * *

وقد تضمنت السنة المطهرة كثيراً من أحاديث الرسول الأمين، الخاصة على الجهاد، المبينة فضله، الدالة على سمو منزلته.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قيل: ثم أي؟ قال: «**حج مبرور**».

وعن ابن مسعود قال: قلت: يارسول الله! أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**».

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**». [متفق عليه]

وعن أبي سعيد الخدري قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «**مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**». قال: ثم من؟ قال: «**مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدَع الناس من شره**».

وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «**من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**».

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**».

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**». [رواه مسلم واحمد والترمذي ]

وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق**». [رواه مسلم وأحمد وأبو داود]

وأحاديث الرسول ﷺ في هذا المعنى كثيرة فلا نطيل بإيرادها، وفيما مضى غنية لمن يريد الاقتناع بفضل الجهاد في سبيل الله.

* * *

وإذا قيل: إن المسلمين في هذه الآونة لا تمكنهم ظروفهم وأحوالهم من الجهاد في سبيل الله بالمعنى الذي كان معروفاً في صدر الإسلام وما يليه من العصور، فهل سقط فرض الجهاد عن المسلمين؟

والجواب: أن فرض الجهاد قائم لا يسقط عن المسلمين إلى يوم القيامة، مهما تسوء أحوالهم، أو ترق شئونهم، ولو عم الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، وتغلغل في كل نقب ومخرم، وقام الحق والعدل في كل موضع قدم من الأرض، إذ لابد من المحافظة على هذه الحال. وهذه المحافظة جهاد، والجهاد في كل عصر بحسبه، وعند كل جماعة من المسلمين على حسب وسعهم.

وإذا كانت الأمم الإسلامية في هذه العصور مغلوبة على أمرها، مغلولة الأيدي، مكبلة الأقدام، فكل عمل يعينها على حل أغلالها وفك قيودها، وتحطيم أنكالها، وتقريبها من استقلالها أو إدنائها من حريتها فهو من الجهاد.

فالعمل على مكافحة الأمية جهاد، ونشر الثقافة العامة جهاد،

ومحـاربة البدع والخرافات جهاد، وتعليم الدين الصحيح جهاد، والدعوة إلى المحافظة على الصحة العامة، والاستمساك بالأخلاق الكريمة. والتعاون والتضامن جهاد.

وعلى الجملة كل ما يقرب الأمة من التمكن من الظفر باستقلالها التام ويهيئها للاستمتاع بحريتها إنما هو جهاد في سبيل الله. وكل ما ذكرت من الأمور، ميسور في كل عصر، ولكل أمة، مهما يشتد ظلم الظالم واستبداد المستبد.

فعلى المسلمين أن يعملوا ما وسعهم على أن يهيئوا أنفسهم للظفر باستقلالهم. واسترجاع حريتهم، واستعادة مجدهم. وذلك العمل جهاد، وهو فرض على كل قادر عليه، وله فضل الجهاد وثوابه متى صدقت النية.

* * *

وبعد فإن الجهاد وهو التضحية بالنفس والمال في سبيل الله من أقرب الوسائل إلى مرضاة الله، بل هو أقربها جميعاً: إذ هو الدليل على صحة الإيمان وصدق اليقين. قال: ـ تعالى ـ: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾.

وكيف لا يكـون الجهـاد من أقـرب الوسائل إلى مرضاة الله. والمجاهد قد باع لله تعالى نفسه، وهي أثمن ما يملك، وأغلى ما يستطيع أن يضحي به.

يا حسرة على المسلمين!!

أقفلوا باب الجهاد، كما أقفلوا باب الاجتهاد، وتفرقوا شيعاً، فغلبهم الأعـداء على أمـرهم، فأصبحـوا كثـيراً عددهم، قليلاً غناؤهم، أمرهم في أيدي غيرهم، يقضى في شأنهم وهم غائبون.

ألا يقرءون سيرة نبيهم، وسير أسلافهم الأبطال حتى تتحرك الغـيرة في نفـوسهم، وينبض عرق العـزة في قلوبهم، فيضمـوا صفوفهم، ويجمعوا كلمتهم على أن يعيدوا للإسلام عزته ومكانته بين الأمم والشعوب. وعلى كل حال، لايزال في المسلمين خير، ولا ينبغي أن نقنط من روح الله.

# ٥ ـ فلاح المستجيبين لدعوة الله

ضمن الله الفلاح لهؤلاء الذين يستجيبون لدعوته، ويطيعون أمره، فيتقونه حق تقاته، ويبتغون إليه الوسيلة، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

أما الفلاح الذي ضمن الله ـ تعالى ـ لمن يستجيب له، فهو أن يحييه في الدنيا حياة طيبة سعيدة؛ تقر بها عينه، ويثلج صدره، ويهنأ عيشه، وتفتح له بركات من السماء والأرض، وينصر على أعدائه، ويصرف عنه السوء والفحشاء، ويوقى السيئات، ثم يدخله في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ويحظى برضا ربه، يكلمه، وينظر إليه. وتحييه الملائكة، ويستمتع بالسعادة التي لا سعادة وراءها. ويكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وفقنا الله ـ تعالى ـ لأن نكون من المؤمنين الذين يتقون الله حق تقاته، ويبتغون إليه الوسيلة، ويجاهدون في سبيله؛ ليكونوا من المفلحين.

# همسات

الآن قد فرغت من تفسير هذه الآية الكريمة، وبيّنت لك بوضوح ليس بعده وضوح معنى الوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه. وعرضت عليك بعض الوسائل التي تقربك إلى الله ـ تعالى ـ وتزلفك عنده، وكلها كما رأيت تحتاج إلى تضحية وبذل وإيثار، فيها تضحية بالوقت أو بالراحة أو بالمال أو النفس.

الآن أرجو أن تأذن في أن أهمس في أذنك همسات بيني وبينك، لتزنها بميزان العقل، وإنه لميزان قسط يبين لك الإبريز من الزائف فأقول:

إن الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وكتب لهم التوفيق، وامتلأت أنفسهم إيماناً وتسليماً، يبتغون إلى الله الوسيلة كما أمر، ويتوخون محابه، ويحرصون على مرضاته، ويضحون في سبيله بما يملكون من نفس ومال. أما هؤلاء الذين أخلدوا إلى الهوينا، وملأ الحرص فراغ قلوبهم، واستحوذ الجبن على أنفسهم وأسلموا عقولهم إلى الأوهام والأباطيل، فقد ابتدعوا لأنفسهم وابتدع لهم شيوخهم وسائل زائفة ظنوها تقرب إلى الله تعالى وترضيه، وطوعت لهم أنفسهم أن يسلكوا هذه السبل المضلة. ولو أنهم رضوا ذلك لأنفسهم فحسب لهان الخطب. وخفّت البلوى. ولكنهم أشاعوا هذا الفساد في الأرض، ودعوا الناس إليه جادين ملحين. فضلوا وأضلوا.

وهذه شبهة قد ملكت قلوب الناس، وعششت في صدورهم، فكانت داعية هذه الضلالة، وباعثة هذه الفتنة، وذلك أن بعض الذين تصف ألسنتهم الكذب، قالوا كذبا وزوراً: إن النبيَّ ﷺ قال: **توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم** .

وحاش لله أن يقول رسول الله ﷺ هذه المقالة، التي لا توائم روح الشريعة المطهرة التي جاء بها، وما كان لرسول الله ﷺ أن يهدم ما بناه، وأن ينقض ما أبرمه. وقد جاء بالتوحيد الخالص، الذي لا تشوبه الشوائب، ولا ترنقّه الأكدار، وحدثنا أن الأمم من قبلنا كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بصالح أعمالهم، فنحن أولى بهذا منهم، لأن شريعتنا أتم الشرائع وأكملها. روى البخاري من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار. فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله ياهؤلاء لا ينجيكم إلاَّ الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه. فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فَرق من أرز، فذهب وتركه. وأني عمدت إلى ذلك الفرق، فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسُقها. فقال لي: إنما لي عندك فرَق من أرز فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق. فساقها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا. فانساحت عنهم الصخرة.**

**فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران. فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد**

رقدا. وأهلي وعيالي يتضاغوْن من الجوع. فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أُوقظهما. وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما. فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليَّ. وأني راودتها عن نفسها، فأبت إلاَّ أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها، حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها. فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا ففرّج الله عنهم، فخرجوا». [متفق عليه]

* * *

إي وربي، إنه لحق.

هذه هي الوسيلة.

وما توسل هؤلاء النفر إلا بصالح أعمالهم.

توسل الأول بالأمانة وأداء الأمانات إلى أهلها خوفاً من الله تعالى.

وتوسل الثاني ببر والديه ابتغاء مرضاة الله.

وتوسل الثالث بالعفة، واجتناب الحرام طاعة لله تعالى.

لمثل هذا فليعمل العاملون. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

* * *

أيستطيع أولئك الخرّاصون الذين يروجون للباطل أن يدلّوا على سند حديثهم أو يرشدوا إلى كتاب من كتب السنة الصحيحة جاء فيه؟

لم يقف الأمر بأولئك الأئمة الأفّاكين عند التوسل بجاه الرسول ﷺ، بل توسلوا إلى الله بجاه كل من دبّ ودرج، وكل من سال لعـابه وتدنس إهابه، وتمزقت ثيابه زاعمين أنهم أولياء صالحون، أنفاسهم طاهرة، وأسرارهم حاضرة، ولهم ما يشاءون عند ربهم.

قومٌ ضعفت هممهم أن يعملوا عملاً نافعاً، وأُحضرت أنفسهم الشح. فضنوا بأموالهم أن ينفقوها في سبيل الله، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فصدهم عن السبيل، فجنحوا إلى ذوات المخلوقين أو جاه العباد الصالحين وسموها وسائل، وأقسموا بها على الله، ليبلغهم ما يريدون، فإذا نهيتهم عن ذلك الباطل، ودعوتهم إلى الحق من أمر الوسيلة، نبت عنك أسماعهم، وصدفت عنك قلوبهم، لأن الاعتقاد الفاسد قد نشب في قلوبهم وتأشب فيها، وأوغل بجذوره في نواحيها. وكان كنبات السوء الطفيلي كلما اجتثثته عاد فنما، وكلما قطعته رجع فنبت.

وآفة هؤلاء الذين لهجوا بالباطل، سادتهم وكبراؤهم الذين ألقوا بأيديهم أزمة عقولهم، فأفسدوا عليهم أمرهم، وباءوا بأثمهم، وهم لا يشعرون.

# الوسائل الباطلة

ترك الناس صالح العمل كما قدمت، ولهجوا بأسماء ظنوا أنها تقربهم إلى الله، وأن الله ـ تعالى ـ يستجيب لهم، إذا أقسموا عليه بها، فإذا نهاهم ناه عن هذه المزاعم الباطلة، التي تورطوا فيها، ثاروا به، وطعنوا في دينه، ولو أتيح لهم الفتك به لفعلوا لا يرقبون فيه إلاًّ ولا ذمة.

يحسب أولئك الغافلون أن ذوات المخلوقين وسائل إلى الله، فمن كانت له إلى الله حاجة أقسم عليه بأسمائهم، أو سأله بجاههم.

وما أكثر ما تسمع منهم أمثال هذه العبارات.

يارب بالحفني وبالسمان، وبشيخنا وملاذنا فلان.

ومن عجب أنك تسمع بعض الغافلين يقسمون على الله بأسماء أشخاص لايزالون على قيد الحياة، يعرفهم معاصروهم، ويعرفون أن منهم الفاسق. ومنهم عاق والديه، ومنهم المضيّع لحقوق الزوجية، ومنهم اللص المحتال، ومنهم الخبيث الدجال.

يا قوم عفا الله عنكم ما لكم كيف تحكمون؟

أذلك خير أم التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح تزكو به النفس، ويطهر به القلب، وتستفيد منه الأمة وينتفع الفقير؟

* * *

يا قوم ألهمكم الله الرشد وهداكم صراطاً مستقيماً.

سلوا الله بذاته وصفاته وأسمائه.

سلوه كما سألته السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حين قالت: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تقضي حاجتي».

سلوه بحبكم لنبيه الأمين ﷺ وبحبكم للصالحين من عباده وقولوا: اللهم إنا نسألك بحبنا لنبيك محمد ﷺ وللصالحين من عبادك.

وليس من شك في أن الله ـ تعالى ـ يحب نبيه الكريم الذي اصطفاه لإبلاغ رسالته إلى خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

وليس من شك في أنه يحب الصالحين، الذين يتبعون ما جاء به الرسول الكريم ﷺ: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾.

والتوسل بحب الله لرسوله وللصالحين من عباده إنما هو توسل بصفة من صفات الله ـ تعالى ـ. والتوسل بصفات الله تعالى وأسمائه هو الذي أدعوك إليه وأحضك عليه. قال ﷺ: «**إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها**» ومن معالي الأمور أن تنصرف عن السفاسف، وأن تسأل ربك بذاته وصفاته وأسمائه. ومن سفاسف الأمور أن تسأله بذوات المخلوقين.

يا قوم! ما ضركم لو أصلحتم عبارتكم، وصححتم عبادتكم، وأرضيتم ربكم، وعظّمتم نبيكم، وكنتم من المتقين المبشرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

# غلو وإغراق

ومن الناس من يعدل بالوسيلة عن وجهها، ويدعو المخلوقين من دون الله، ويسألهم حاجته أو يسألهم أن يدعو الله له، ويسمي ذلك توسلاً، وما هو بالتوسل. إنما هو الشرك الممقوت وقانا الله شره.

أيحسبون الإسلام أن ينطق الإنسان بالشهادتين وهو لا يدري معناهما ولا يفقه حقيقتهما، بل يعتقد ما يخالفهما.

يقول أحدهم: لا إله إلا الله، وهو يقف أمام القبور خاضعاً خاشعاً، يلتمس من رفات من فيها قضاء الحاجات، وإفاضة البركات، ودفع الملمات. فأين معنى لا إله إلا الله؟

يجب أن تبرأ أفعال العقلاء من العبث.

هذا الذي تراءت له الأفعى، فظن أن لن يقدر على النجاة منها، فصاح هاتفاً من أعماق صدره «أنقذني يا رفاعي»!.

أتحسبه يقول ذلك عابثاً أو لاهياً؟

أتظن أنه لا يعتقد أن الرفاعي قادر على إنقاذه من شر هذه الأفعى؟

أتحسب أنه يعتقد أن الرفاعي لا يسمع نداءه ولا يستجيب له؟

فأما إن كان يزعم أنه يهتف هذا الهتاف، ويدعو هذا الدعاء، وهو يعتقد أن الرفاعي لا يسمع ولا يجيب، فليس كلامنا معه، لأنا

لا نكلم الذين ألغوا عقولهم، وصاروا يهرفون بما لا يعرفون.

أما إن كان يعتقد أنه يسمعه ويستجيب له، وهو مستعد لقبول النصح فنقول له:

إن الغيب لله وحده، فعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، فاعتقادك أن الرفاعي يعلم أنك تناديه وتستغيثه شرك بالله تعالى وتأليه للرفاعي؛ لأنك منحته من صفات الله تعالى الخاصة به، وهي علم الغيب، ولأنك أسندت إليه قدرة غيبية من وراء الأسباب الكونية، يستطيع بها أن يستجيب لك، وأن يدفع عنك شر الأفعى التي تساورك. ولا معنى للشرك إلا أن تعتقد أن كائناً من الكائنات يستطيع أن يتصرف في الكون بقوة غيبية وراء الأسباب الكونية.

والتوحيد الخالص المجرد يقتضيك أن تعتقد تفرد الله ـ تعالى ـ بعلم الغيب، وبالقدرة على النفع والضر، وبالتصرف في ملكوت السموات والأرض.

والقرآن الكريم في كثير من آياته يندد بهؤلاء الذين يدعون غير الله مستغيثين أو مستعينين. قال ـ تعالى ـ: **﴿له دعوة الحق. والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلاَّ في ضلال﴾**.

ومعنى هذه الآية الكريمة أن دعوة الحق التي تسمع، ويستجاب لها هي التي ترفع إلى الله السميع العليم، القادر على كل شيء. وأما ما يوجه إلى غيره من الدعاء فباطل لا يغني عن صاحبه فتيلاً؛ لأن الذين يدعونهم من دونه لا يملكون الاستجابة. ولا يقدرون على تحقيق ما يعلق بهم من رجاء، ومثل من يدعو غير الله كمثل ظامىء

وقف على شاطيء نهر أو شفير بئر، أو مجرى سيل ثم بسط كفيه إلى الماء يدعوه، ويلح في دعائه، ويسرف في الإلحاح؛ لكي يبلغ الماء فاه، ويروي ظمأه، ويطفيء غلته. والماء باق في موضعه، لا يبرح، ولا يريم، ولا ينتقل، ولا يبلغ فاه، فيقتله الظمأ، والماء بين يديه؛ لأنه دعا غير سميع، ورجا غير مجيب.

ويقول الله تعالى: ﴿**ذلكم الله ربكم له الملك. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**﴾.

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محظورا**﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلها من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى شرح، ولا تفتقر إلى تفسير.

# شُبــه

وهنالك شُبَه تعرض لكثير من الناس.

منها أنك إذا قلت لأحدهم: لا تدع غير الله، فسرعان ما ينطلق لسانه بهذه العبارة: هذا نَفَسُهُ طاهر.

ولـو تفكـر القائل بعض التفكير لعرف أن روح هذا الولي قد فارقت جسمه، وأن الجسم قد استقر في أعماق قبره، وأن الروح قد ذهبت إلى حيث لا يعلم إلا الله، وليس له الآن نفَسٌ طاهر ولا نجس.

ومنها أنهم يقولون: نحن ملوثون بالذنوب والمعاصي.

وفي وسعهم أن يتـزكـوا ويتـطهروا من ذنوبهم وآثامهم بالتوبة النصـوح والاستغفار، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾.

ومنها قولهم: إذا كانت لك إلى رئيس كبير حاجة أفلا تستشفع إليه بذوي الزلفىٰ لديه.

والكلام هنا يحتاج إلى شيء من البسط، فأقول:

هذا الرئيس الكبير إما أن يكون ظالماً وإما أن يكون عادلاً. فأما العادل فسيعطيك حقك بغير وساطة، وقد يغضبه أن تأتيه بشفيع؛

لأنه يعد ذلك قدحاً في عدله، وطعناً في ذمته، وربك حكمٌ عدلٌ يعطي كل ذي حق حقه.

وأما الظالم فقد يحمله الشفيع على أن يرد إليك حقك أو يمنحك ما ليس لك بحق. وحاش لله أن يظلم الناس شيئاً.

وقد يجهلك الرئيس فتحتاج إلى من يعلمه بك. ولكن ربك بكل شيء عليم **﴿ألا يعلم من خلق﴾**؟.

وقد يكون الحاكم قاسياً فتحتاج إلى من يسترحمه لك، وربك الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، والذي هو أرحم من الوالدة بولدها.

هذا وربك يقول: **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾** أي لا تمثلوه بخلقه، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

* * *

هذا وأرجو أن أكون بما كتبت قد نبهت من غفلة، أو ذكّرت من نسيان وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

**أبوالوفاء محمد درويش**

# المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ صحيح البخاري.
٣ ـ صحيح مسلم.
٤ ـ القاموس المحيط.
٥ ـ النهاية لابن الأثير.
٦ ـ مفردات الراغب.
٧ ـ تفسير ابن جرير الطبري.
٨ ـ تفسير الزمخشري.
٩ ـ تفسير البيضاوي.
١٠ ـ تفسير النسفي.
١١ ـ تفسير أبي السعود.
١٢ ـ تفسير الألوسي.
١٣ ـ تفسير الجلالين.

# فهـــرس